مكتبة

سيمون دو بوفوار

صبيّتان لا تفترقان

ترجمة: محمد آيت حنا

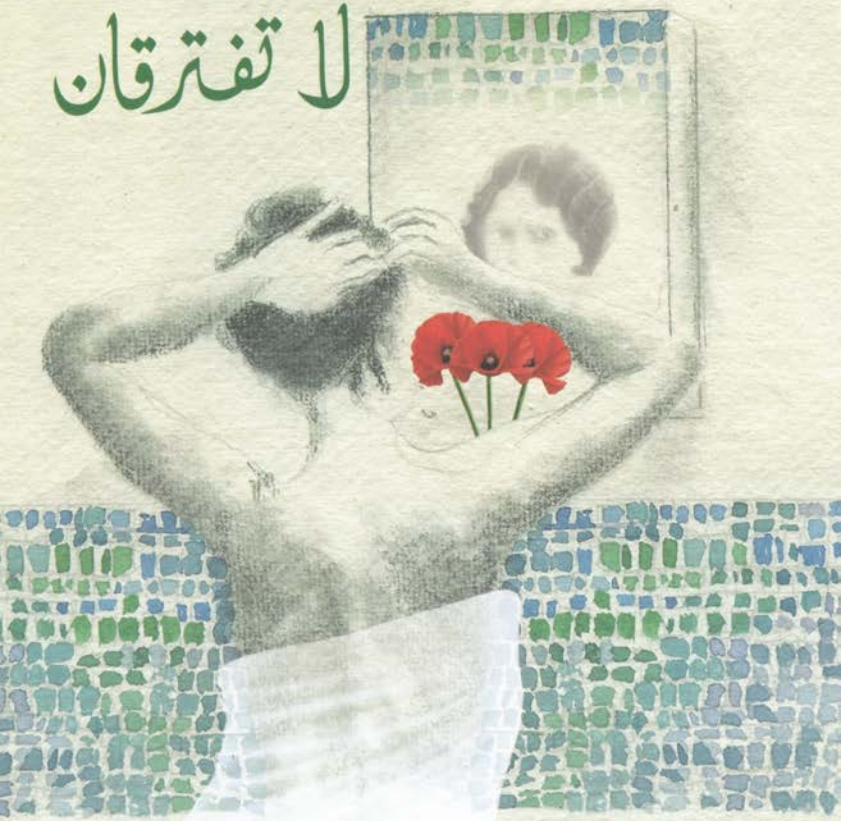

دار الآداب

مكتبة 895 رواية

مكتبة | 895
سُر مَن قرأ

صبيَّتان لا تفترقان

صبيَّتان لا تفترقان

سيمون دو بوفوار/مؤلِّفة فرنسيَّة

الطبعة الأولى عام 2021
Les Inséparables, Simone de Beauvoir
© Éditions de L'Herme, 2020
All Rights Reserved
ISBN 978-9953-89-7240

26 7 2022 مكتبة
t.me/t_pdf

Cet Ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie de soutien du Ministère de L'Europe et des Affaires Etrangères et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France.

دار الآداب للنشر والتوزيع

e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

سيمون دو بوفوار

مكتبة 895
سُر مَن قرأ

صبيَّتان لا تفترقان

ترجمة: محمّد آيت حنّا

دار الآداب

مقدِّمة

مكتبة
t.me/t_pdf

إلى جانب سيمون دو بوفوار، البالغة من العمر تسع سنوات، والتِّلميذةِ في مدرسة أديلين ديزير الكاثوليكيَّة، تجلسُ صبيَّةٌ ذات شعر قصيرٍ أسود، إليزابيت لاكوان، المعروفة باسم زازا، صبيَّةٌ بالكاد تكبُر سيمونَ بأيَّامٍ. إنَّها تلقائيَّة، فكِهة، جريئة، تبرز متناقضةً مع المحيط العامّ. ثمَّ هي ذي زازا تتخلَّفُ عن بداية العام الدراسيّ التالي، فيُظلِم لتخلُّفها العالمُ، يصير كئيبًا ماحقًا؛ ثمَّ هي ذي المتخلِّفةُ تصل فجأةً وفي أعقابِها الشمسُ والفرحُ والسعادة. لقد وقعت سيمون في غواية ذكائِها المتَّقد ومواهبها المتعدِّدة، صارت أسيرةً لها. أصبحتا تتنافسان على المراكز الأولى، ولا تنفصلان. لا يعني هذا أنَّ سيمون لم تكن تعيش حياةً سعيدة في كنف أسرتها، بين أمّها الحبيبة، وأبيها المعجبةِ به، وشقيقتها الصُّغرى الخنوعة. بَيْدَ أنَّ ما يحدث للصبيَّة ذاتِ العشر سنين، هو مغامرةُ القلب الأولى:

لقد شغفت بزازا، صارت تبجّلها، وترتجف رعبًا حين تفكّر في أنّها قد تخيّب ظنّها. بالطبع هي لا تفهم، في غمرة هشاشة الطفولة، الإلهامَ المبكرَ الذي صعقها، لكنْ بالنّسبة إلينا، نحن شهودَها، فإنّ الأمر مؤثّرٌ للغاية. إنّ أحاديثَها الطويلة مع زازا، عطيّةٌ لا نظير لها. لكنْ.. نمط تربيتِهما يقيّدهما، إذ لا مجال فيه للأُلفة، حتّى إنّهما تتخاطبان بصيغة الجمع، ولكنْ على الرّغم من كلّ ذاك التحفُّظ، كانتا تتحادثان، كما لم تُحادث سيمون أيًّا كان. أيّ شعورٍ هو إذن هذا اللّامُسمّى الذي اتّخذَ التّوصيفَ التّقليديَّ العامَ «صداقةً»، والذي أشعلَ قلبَ الصبيّة الوليدَ، في فتنةٍ ووجدٍ، اللّهمّ إلّا الحبّ؟ وسرعان ما أدركَت الصبيّةُ أنّ زازا لا تشعر نحوها بتعلُّقٍ مماثل، كما أنّها لا تدرك شدّةَ حبّها لها. لكن، فيمَ يهمُّ ذلك، مقارنةً بوهج أن نُحبَّ؟

ثمّ توفيت زازا فجأةً، قبل شهر من عيد ميلادها الثاني والعشرين، يوم 25 نوفمبر 1929. فاجعةٌ غير متوقّعة، ظلّت تسكنُ سيمون دو بوفوار كلعنة. لزمنٍ طويلٍ، ظلّت صديقتُها تعودها في أحلامها، مُصْفرَّةَ الوجه، تحت عباءةٍ ورديّة، وتحدّقُ فيها عاتبةً. إبطالًا للعدم والنسيان، لا وسيلةَ إلّا هذه: تعويذة الأدب. أربع مرّات، في كتاباتٍ مختلفة؛ في رواياتٍ للنّاشئة غير منشورة، وفي المجموعة القصصيّة «**حين تكون الأولويّة للرّوحيّ**»، وفي مقطعٍ محذوفٍ من رواية **المثقّفون**[1] التي حصلت على الغونكور سنة 1954؛ قلنا، أربع

---

(1) نضع عناوين الكتب كما هي متداولةٌ في الترجمات العربيّة تيسيرًا للقارئ أن يصل إليها، إلّا في حال كان العمل غير مترجم. (جميع الحواشي من وضع المترجم، ما لم ترِد الإشارة إلى خلاف ذلك).

مرَّات بالفعل حاولت الكاتبة، سُدًى، بعثَ زازا. وفي سنة حصولها على الغونكور نفسِها أعادت الكرَّة في قصّةٍ طويلةٍ، ظلَّت غير منشورة حتى يومنا هذا، قصَّةٍ تركتها بلا عنوانٍ، وهي القصَّة التي ننشرها هنا. إنَّ هذا النقل التخييليّ الأخيرَ، لن يرضيها كلّ الرّضا، لكنَّه سيقودها، عبر انعطافٍ جوهريّ، إلى الانقلاب الحاسمِ نحو الكتابة الأدبيَّة. في عام 1958، أدمجت في سيرتها الذاتيَّة، مذكَّرات فتاةٍ رصينة، قصَّةَ حياةِ زازا وموتِها.

أنهت سيمون دو بوفوار كتابة القصَّة، واحتفظت بها، على الرَّغم من أنَّ حكمها النقديَّ عليها ظلَّت تعتوره الشكوك؛ إلَّا أنّ ذلك لا يُنقص من قيمة العمل، ذاك أنَّ إزاء لغزٍ، لا بدَّ أن تطولَ المساءَلةُ حتَّى تُنهك، وأن تتضاعفَ زوايا المقاربة، ووجهات النظر، والإضاءات. حتَّى موت زازا نفسه، ما يزالُ في جانبٍ منه لغزًا. ذاك أنَّ الكتابَتيْن اللَّتيْن خُصَّ بهما، سنتَي 1954 و1958، لا تتوافقان كلّ التوافق. وفي هذه الرواية تحديدًا، يُقارَبُ لأوَّل مرَّةٍ موضوع الصداقةِ العظيمة؛ صداقةٍ من تلك الصداقات الغامضة كالحبّ، نظير تلك التي دفعت مونتيني إلى أن يكتب عن لا بويسيه وعن نفسه: «لأنَّه كان هو، لأنَّه كان أنا». إلى جانب أندريه، التجسيدِ الأدبيِّ المتخيَّل لزازا، توجدُ ساردةٌ تقول «أنا»، نقصد صديقتَها سيلفي. إنَّ «الصّبيَّتيْن اللَّتيْن لا تنفصلان» تُجمعان معًا، في القصَّة كما في الحياة، لتواجها الأحداث؛ غير أنَّ سيلفي هي التي، من خلال منظور صداقتها، تروي لنا الأحداث، ممَّا يمكّننا، عبر لعبة التناقضات، من أن نستشفَّ اللّبسَ غير القابل للرَّفع.

إنَّ اختيار التخييل يستتبع عددًا من التغييرات والتعديلات التي تحتاج منَّا كشفَها. إنَّ أسماء الشخوص والأماكن، والوضعيَّات الأُسريَّة تختلف عن الواقع؛ فتحلُّ أندريه غالار محلّ إليزابيت لاكوان، وسيلفي لوباج محل سيمون دو بوفوار. وتضمُّ أسرة غالار (التي تحمل اسم مابيل في مذكَّرات فتاة رصينة) سبعة أطفال، بينهم صبيٌّ واحدٌ فقط؛ أمَّا ضمن أسرة لاكوان، فقد كانوا تسعة أحياءٍ، ستّ صبايا وثلاثة أولاد. ولم يكن لسيمون دو بوفوار سوى أختٍ واحدة، أمَّا قرينَتُها المسمَّاة سيلفي، فلها أُختان. ولا نحتاج كبيرَ بداهةٍ لندرك أنَّ خلفَ مدرسة أديلايد التي اختارتها بوفوار في نصِّها، تتوارى مدرسة ديزير المعروفة، الواقعة في زقاق جاكوب بسان جيرمان دي بري؛ فهناك، في تلك المدرسة، عمَّدت المدرِّساتُ الصَّبيَّتيْن باسم «اللَّتان لا تفترقان[1]» ولأنَّ هذا التَّعبير يجسِّرُ بين الواقع والتَّخييل، فقد اخترناه عنوانًا للرِّواية. وعلى المنوال نفسه، يُستخدَمُ باسكال بلوندل في النصّ قناعًا للفيلسوف موريس ميرلوبونتي (براديل في المذكرات)، وهو يتيم الأب، شديدُ التعلُّق بأمِّه التي يعيش معها، رفقةَ أختٍ لا تشبه في شيءٍ إيمًّا. كذلك تَحوّلَ عقارُ ميرينياك في ليموزان إلى سادرناك، بينما تشير بيتاري إلى غانيُبان حيث أقامت سيمون دو بوفوار مرَّتيْن، في واحدٍ من عقاريْن اثنيْن يملكهما آل لاكوان، ويقع في إقليم لاند، بينما

(1) ينبغي الانتباه هنا إلى أنَّ الوصف في الفرنسيَّة كلمةٌ واحدةٌ les inséparables، وتستعمل الكلمة في المعتاد اسمًا لما يعرف بطائرَي الحبّ، ذيْنك الطَّائريْن اللذيْن يعيشان العمر كلّه لا يفترقان.

يقع الثاني في هوباردان. وهناك، في العقار المذكور، يوجد قبر زازا، بسان ـ بونديلون.

لكنْ، ما سبب وفاة زازا؟ وفقًا للموضوعيَّة العِلميَّة الباردة: **التهاب الدماغ الفيروسيّ**. ولكنْ أين نجدُ أصل السلسلة التي انتهت بموتِها، تلك السلسلة التي تتداخل مع نسيج وجودها بأكمله، والتي أضعفتها، وأوهنتها حتَّى استنفدَتها، وآيَستها، وألقت بها إلى مهاوي الجنون والموت؟ إنَّ الجواب عند سيمون دو بوفوار: زازا ماتت لأنَّها كانت استثنائيَّة. لقد قُتلت، موتُها كان «جريمة روحانيَّة».

ماتت زازا لأنَّها سعت إلى أن تكون هي نفسها، ولأنَّهم أقنعوها بأنَّ سعيها ذاك كان شرًّا. ضمن البرجوازيَّة الكاثوليكيَّة المتشدِّدة، حيث أبصرَت النّور يوم 25 ديسمبر 1907، ووسط عائلتها ذات التقاليد الجامدة، كان واجبُ الفتاة هو أن تنسى نفسَها، وأن تتخلَّى عن نفسها، وأن تتكيَّف. ولأنَّ زازا كانت استثنائيَّةً، فإنَّها لم تستطع «التكيُّف» ـ وإنَّه لمصطلحٌ قبيحٌ، يعني أن يتناسب المرء مع القالب المجهَّز له سلفًا، ليصير قطعةً من بين قطعٍ أخرى داخل خليَّة الشَّمع؛ ومن شَذَّ عن القاعدة ضُغِطَ وسُحقَ وأُلقيَ به كالنّفاية ـ. وزازا لم تكن تستطيع أن تكون جزءًا من الخليَّة، لم تستطع أن تتقولبَ مع الجاهز، لقد سحقوا تفرُّدَها. تلك هي الجريمة، ذاك هو القتل. تذكُر سيمون دو بوفوار، في شيءٍ من الرُّعب، مشهد التقاط صورةٍ عائليَّةٍ في غانيُبان، كان الأطفالُ التّسعة مرتَّبين وفقًا لأعمارهم، وبينهم الفتيات الستُّ في ثوبٍ موحَّدٍ من نسيج التَّافتا الأزرق، ويعتمرن قبَّعاتٍ من قشٍ

متطابقات، مزيَّناتٍ بأزهار قنطريون. هناك كان مكانُ زازا، موضعُها المعدّ لها من الأزل وإلى الأبد، [قدَرُها] أن تكون صغرى بنات لاكوان. وقد رفضت سيمون دو بوفوار، التي كانت آنذاك ما تزال يافعةً، تلك الصُّورةَ رفضًا قاطعًا متعصِّبًا. كلَّا، إنَّ زازا لم تكن منذورةً لأن تؤدِّيَ الدَّور الذي رسمَته لها الصُّورةُ، إنَّما كانت «المتفرِّدة». إنَّها انبثاقٌ غير متوقعٍ للحرّية، وهذا ما أنكرَته عليها تقاليدُ العائلة كلُّها؛ لذا صارت تستثمرها بلا هوادة، صيَّرَتها فريسةً «للواجبات الاجتماعيَّة». مُحاطةً دائمًا بسربٍ من الإخوة والأخوات وأبناء العمومة والأصدقاء والأقرباء، تستهلكُها مهامُّ، أو مشاغلُ اجتماعيَّة، أو زياراتٌ، أو ترفيهٌ جماعيّ، بحيث ما عادت تملك لحظةً لنفسِها، لا تُترك وحدَها أبدًا، ولا تستفردُ برهةً بصديقتها، ما عادت تنتمي إلى نفسها، ولا تُمهَلُ وقتًا لكمانِها، أو لدراساتها؛ حُرمَت امتيازَ العزلة. ولهذا السَّبب، كانت أصياف بيتاري بالنِّسبة إليها جحيمًا. كانت تختنق، وتطمح إلى الهروب من هذا الوجود العامر بحضور الآخرين ـ وقد يخطر هنا ببالنا ذاك الإذلال المماثل الذي تفرضه علينا بعض الأوامر الدينيَّة ـ لدرجة أنَّها شجَّت قدمها بفأس للهروب من مهمَّةٍ شنيعة. إنَّ الوجود في هذه البيئة قائمٌ على ضرورة ألَّا تتمايز الذَّاتُ، إنَّه ليس وجودًا لأجل الأنا، وإنَّما وجودٌ لأجل الآخرين؛ وهذا ما يوضِّحه كلام زازا ذات مرَّةٍ: «إنَّ أمِّي لا تفعل أيَّ شيء لأجل نفسِها، لقد كرَّسَت حياتَها للآخرين». وما دامت هذه التقاليد المنفِّرة مستمرَّةً ونافذةً، فلا بدَّ أن ينسحقَ كلُّ فردٍ وهو ما يزالُ في البوَيضة. والحال، أنَّه لا يوجد بالنِّسبة إلى سيمون دو بوفوار خزيٌ أشنَعُ من هذا الخزي، إنَّه

خزيٌ فلسفيّ ما دام يمسُّ جوهر الشّرط الإنسانيّ. إنَّ إثبات القيمة المطلقة للذّاتيَّة سيظلُّ في صميم فكرها ومتنها، ولا نقصد هنا ذاتيَّة الفرد بما هو مجرَّد رقمٍ بعينه بين أرقامٍ أخرى، ولكنْ ذاتيَّةَ الفريد، المتفرّد، تلك الذاتيَّة التي تجعل كلَّ واحدٍ منَّا، وفقًا لتعبير أندريه جيد: «أكثر الكائنات عدم قابليَّة للاستبدال»؛ إنَّها الوعيُ هنا والآن. «أَحِبَّ من لن ترى له مثيلًا»، إنَّها قناعةٌ راسخةٌ أصليَّة، وسوف يدعمها التأمُّل الفلسفيّ: إنَّ سؤال المُطلق يُناقَشُ هنا على الأرض، أثناء وجودنا الوحيد الممكن. هكذا، ندرك أنَّ الرّهان في قصَّة زازا كان كبيرًا جدًّا.

ما أصول المأساة؟ يتشابك عددٌ من المعطيات ليشكِّلَ حزمةً واحدة، غير أنَّ بعضها يظلّ جليًّا لا تخطئه العين: حبُّها لأمِّها التي يمزِّقُها تنكُّرها لها. لقد شغفت زازا بحبّ أمّها، أحبَّتها حبًّا غيورًا، وتعيسًا. غير أنَّ تلك الحُميّا في الحبّ، قابلها من جهة الأمّ برودٌ، حتَّى غدت البنتُ تشعر بأنَّها مغمورةٌ وسط كتلة الأشقّاء، أنَّها مجرَّد قطعةٍ بين قطعٍ أخرى. بذكاء، لم تكن السيِّدة لاكوان تلجأ إلى سلطتها مع أطفالها الصغار في شغبهم البسيط، وإنَّما تدّخرها لكي تُفيدَ منها أعظم الإفادة في عظائم الأمور. إنَّ بوصلة حياة الفتاة موجَّهةٌ شطرَ الزّواج أو الدَّير، ولا إمكان لها لأن تقرِّر مصيرَها وفقَ ميولها ومشاعرها. الأُسرة هي من يرتِّبُ رابطة الزواج، فهي من ينظِّمُ الـ«مقابلات»، وهي من يختار المرشَّحين وفقًا لمصالحها الأيديولوجيَّة والدينيَّة والاجتماعيَّة والماليَّة. لا بدَّ من أن تتزوَّج

من محيطك. وقد اصطدمت زازا مرَّةً أولى، وهي في سنّ الخامسة عشرة، بهذه المعتقدات القاتلة؛ إذ فُرض عليها أن تنفصم انفصامًا قاسيًا وحشيًّا عن حبّها لابن عمها برنار؛ ثمَّ كاد يتكرَّر الأمر حين بلغت العشرين. فقد اختارت الارتباط بالغريب باسكال بلوندل، وإذا بالعشيرة ترصد فيه الكثيرَ من الشُّبهات غير المقبولة. إنَّ مأساة زازا تكمن في أنَّ في أعماقها، يتستَّر العدوُّ دائمًا خلف الحليف: إنَّها لا تملك أن تتحدَّى سلطةً مقدَّسة ومحبوبة، سلطةً قتلَها عقابُها. في الآن نفسه الذي يعمل فيه اللَّومُ الأمُوميّ على تقويض ثقتِها بنفسها وهدم خياراتها، تعمل هي على استدماجه والتّماهي معه، حتَّى ينتهي بها المطاف بأن توافقَ حُكمَ القاضي الذي يُدينها. ثمَّ إنَّ القمع الذي تمارسه السيِّدة لاكوان ينطوي على تناقضٍ، لدرجة أنَّنا نستشفُّ في البناء الكلِّيِّ المتراصِّ صَدعًا: فهي نفسها، أيَّامَ صباها، أجبرتها والدتُها على زواجٍ كانت تنفر منه. كان عليها أن «تتكيَّف» ـ وهنا تظهر الكلمة الفظيعة ـ لقد أنكرت نفسَها، وصارت وجهًا أموميًّا مستبدًّا، فقرَّرت أن تعيد إنتاج آليَّة الطَّحن. أيُّ شرخٍ إذن، أيُّ إحباطٍ، يتستَّر خلف مظهرها الواثق؟

كان غطاءُ التقوى، أو بالأحرى الرُّوحانيَّة، يلقي بثقله على حياة زازا. لقد غرقت في جوٍّ مشبعٍ بالدين: فهي سليلةُ عائلةٍ من الكاثوليك المتشدِّدين، والدُها رئيسُ لرابطة أولياء أُسرٍ كثيرة العدد، وأمّها تحتلُّ مكانةً بارزةً في أبرشيَّة القدِّيس توما الأكويني، وأحد إخوَتِها كاهنٌ، وإحدى شقيقاتها راهبة. وفي كلِّ عامٍ، كانت عائلتها

تذهبُ إلى الحجّ في لورد. إنَّ ما تشجُبه سيمون دو بوفوار تحت مسمَّى الرّوحانيَّة، هو «التبييض»، هو فعل التَّعمية الذي يتجلَّى في إسدال هالةٍ فوق طبيعيَّة على القيم الطبقيَّة التي هي بطبيعتها قيمٌ دنيويَّةٌ. وبالطبع، فإنَّ من يمارسون فعل التّعمية هم أوَّل من يصيبُهم العماء. فالتحجُّج تلقائيًّا بالمبرِّرات الدِّينيَّة يبرِّرُ كلّ شيء. لذلك قال السيِّد غالار بعد وفاة ابنته: «كنَّا مجرَّد أدواتٍ في يد الربّ». لقد طُوِّعت زازا، لأنَّها استَدمجت نزعةً كاثوليكيَّة ليست، في العموم، سوى ممارسةٍ مُريحةٍ وشكليَّة. ومرَّةً أخرى، أساءت لها طبيعتُها الاستثنائيَّة. على الرَّغم من أنَّها كشفت النفاق والأكاذيب وأنانيَّة «الأخلاقيَّات» السَّائدة في وسطها الذي ينكشف دائمًا زيفُ أفعاله وأفكاره البائسة التي تخدم مصالحه الذاتيَّة، في تعارضٍ دائم مع روح الأناجيل؛ قلنا، على الرَّغم ممَّا كشفته من نفاقٍ وزيف، إلَّا أنَّ إيمانها الذي اهتزَّ لوهلةٍ، سرعان ما استعاد رسوخَه. غير أنَّها ظلَّت تعاني من منفىً جوّانيّ، من سوء فهم أقربائها، ومن عزلتها ـ على الرَّغم من أنَّها لم تكن تُترك لنفسِها أبدًا ـ ظلَّت تعاني من الوحدة الوجوديَّة. إنَّ أصالة مطالبها الروحيَّة لا تُؤدِّي إلَّا إلى قهرها، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وتعذيبِها، بإجبارها على الخضوع لتناقضاتٍ جوّانيَّةٍ حميمة. لأنَّ الإيمان بالنِّسبة إليها ليس، كما هو الحال بالنِّسبة إلى الكثيرين، مجرَّد استخدامٍ أداتيّ مريحٍ للربّ، وسيلةً لادِّعاء الصّواب، ولإيجاد المبرِّرات للذَّات، وللفرار من المسؤوليَّة؛ وإنَّما هو مساءلةٌ مؤلمةٌ لإلهٍ صامتٍ ومبهم، إلهٍ خفيّ. جلّادةَ نفسِها، ممزَّقةً، نَهبًا للأسئلة: هل ينبغي أن تُطيع، أن تتبلَّدَ، أن تخضع، أن تنفيَ نفسَها، أن تتبع وصايا

أمّها؟ أم يجب أن تعصي، أن تثور، أن تطالب بالعطايا والمواهب التي حُبيَت، أن تتبع تحريض صديقتها؟ ما هي إرادة الربّ؟ ماذا ينتظر منها؟

لقد لغَّمَ الإحساسُ الدَّائمُ بالذَّنب حياتها. على النَّقيض من صديقتها سيلفي، فإنَّ أندريه/زازا على درايةٍ كبيرة بأمور الجنس. لقد بيَّنت السيِّدة غالار، بفظاظةٍ تكاد تكون ساديَّة، لابنتها ذات الخمسة عشر ربيعًا، [ما تسمِّيه] فظائعَ الحياة الزَّوجيَّة. قالت لها دون مواربةٍ، إنَّ «ليلة الزفاف لحظةٌ شنيعةٌ، لا بدَّ من المرور منها». وقد بيَّنت تجربةُ زازا زيفَ هذا الادِّعاء الكَلبيّ. إذ جرَّبت سحرَ الحياة الجنسيَّة، ولم تكن القبلات التي تبادلتها مع صديقها برنار قبلاتٍ أفلاطونيَّة. وكانت تتهكَّم من سخافة الصبايا العذارى في محيطها، تسخر من نفاق المحافظين الذين «يبيِّضون»، أو ينكرون أو يُخفون الاحتياجات الطازجة للجسم الحيّ. ولكنْ، في المقابل، هي تعرف أنَّها عرضةٌ للإغراء، ولذلك فإنَّ حساسيَّتها الدافئة، ومزاجها الحارَّ، وحبّها الجسديَّ للحياة، كلّ ذلك يسمِّمُه إفراطٌ في الوازع [الأخلاقيّ]: حتَّى في أتفه رغباتها، تشتبِهُ في وجود خطيئة، خطيئة الجسد. لذا، يقوِّضُها الإحساسُ بالنّدم والخوف والشعور بالذنب، وتعزِّزُ لديها الإدانةُ الذاتيَّةُ الميلَ إلى التَّخلي، والنّزوعَ إلى النَّفيِ، وتدميرَ الذّات. في نهاية المطاف، تستسلم لوالدتها ولباسكال اللذيْن يقنعانها بأخطار إطالة فترةِ الخطوبة، فتوافق على أن تعيش المنفى في إنجلترا، على الرَّغم من أنَّ كيانَها كلّه يرفضه. وهذا الإكراه الضّاريّ،

الأخيرُ، الذي مارسته ضدّ نفسها، هو ما عجَّل بالكارثة. توفيت زازا متأثِّرةً بكمّ التناقضات التي كانت تتقاذفُها.

يقتصر دور سيلفي، الصديقة، في هذه القصَّة على [محاولة] جعل أندريه مفهومةً. وكما بيَّنت إليان ليكارم ـ تابون، فإنَّ نزرًا قليلًا فقط من ذكرياتها يظهر هنا؛ فنحن لا نكاد نعرف شيئًا عن حياتها، ونضالها الشَّخصيّ، والتاريخ الصاخب لتحرُّرها، وبخاصَّة، لا نكاد نعرف شيئًا، عن العداء الجوهريّ بين المثقَّفين والمحافظين، وتلك هي التّيمة الرَّئيسة في مذكَّرات فتاة رصينة، لكنْ هنا لا نرى إلَّا ملامحها العامَّة. على أنَّنا ندرك أنَّ سيلفي لم يكن مرحَّبًا بها في محيط أندريه، بالكاد كانوا يتقبَّلون وجودَها. ففي حين تمتَّع آل غالار بثراءٍ ووضعٍ مريح، ألفَت أسرتُها هي، بعد أن كانت برجوازيَّةَ الانتماءِ، نفسَها مفلسةً، وانخفض انتماؤها الطّبقيُّ بعد حرب 1914. فلم تسلم الصبيَّةُ من إهاناتٍ وإذلالٍ أثناء إقامتها في بيتاري، فكان يُشار باللّمز إلى تصفيفة شعرها، وطقم ملابسها، حتّى إنَّ أندريه قد علّقت، خلسةً، فستانًا جميلًا في خزانة ملابسها. لا بل ثمَّة ما هو أفظع: إنَّ السيِّدة غالار تتوجَّس منها، من هذه الفتاة الضالَّة التي تدرس في السوربون، التي ستحصل على وظيفة، وستكسب لقمة عيشها واستقلاليَّتها. إنَّ المشهد المفجع الذي كان فضاؤه المطبخَ، حيث كشفت سيلفي لزازا، التي ستهوي من علياء غُيومِها، ما كانت تعنيه لها في الماضي ـ كلّ شيء ـ هو النقطة التي تنقلب فيها العلاقة بين الصديقتيْن. ابتداءً من تلك اللَّحظة، ستصير زازا هي الطّرف

الذي يُحبُّ الآخرَ أكثرَ. أمام سيلفي، ينفتح العالم مشرعًا، بينما تسير أندريه صوب موتها. على أنّ سيلفي/سيمون هي من سيُحيي أندريه، ويبعثها من موتها برقّةٍ وتبجيل، ستحييها وتنصفُها متوسّلةً بنعمة الأدب. ولا يفوتني أن أذكّر بأنَّ كلّ جزءٍ من الأجزاء الأربعة المكوّنة لمذكّرات فتاة رصينة ينتهي بكلمةٍ من الكلمات التالية: «زازا»، «تحكي»، «الموت»، «موتها». إنَّ سيمون دو بوفوار تشعر بالذنب، لأنَّ البقاء على قيد الحياة هو بمعنى من المعاني خطيئة. لقد كانت زازا هي الفدية، لا بل إنَّ سيمون ستذهب حدَّ القول في مذكّراتٍ غير منشورة إنَّ زازا كانت «قربان» فرارها هي. ولكنْ بالنِّسبة إلينا نحن، ألا تضطلع روايتُها بالمهمَّة شبه المقدَّسة التي كانت تعهدُ بها إلى الكلمات: الكفاح ضدّ الزمن، الكفاح ضدّ النِّسيان، الكفاح ضدّ الموت، و«إعادة الاعتبار إلى هذا الحضور المطلق للّحظة، إلى خلودِ اللّحظة التي ستدوم إلى الأبد»؟

سيلفي لوبون دو بوفوار

صبيَّتان لا تفترقان

إلى زازا

هل تغشى الدّموعُ عينيَّ اليومَ لأنَّكِ مُتِّ، أم لأنَّني ما أزال حيَّة؟ المفروض أن أهديَ هذه القصَّة إليكِ: لكنَّني أعرف أنَّكِ لم تعودي موجودةً في أيِّ مكانٍ، إنَّما أكلِّمك الآن متوسِّلةً بحيلة الأدب. ثمَّ في نهاية المطاف، هذه القصَّة ليست قصَّتك، هي فقط قصَّةٌ مستوحاةٌ منكِ. فلا أنتِ كنتِ أندريه، ولا أنا هذه المدعوَّة سيلفي التي تتكلَّمُ باسمي.

الفصل الأوَّل

مكتبة
t.me/t_pdf

في التَّاسعة من عمري، كنت صبيَّةً مطيعةً؛ وتلك لم تكن حالي على الدّوام؛ ففي سنيِّ طفولتي الأولى، كان استبداد الكبارِ يلقي بي في نوباتٍ عصبيَّةٍ عاتيةٍ، حتَّى إنَّ إحدى عمَّاتي قالت جادَّةً ذات يومٍ: «إنَّ سيلفي يتلبّسها الشّيطان.» فتكالبت عليَّ الحربُ، والدِّينُ. وقد أبَنتُ، على الفور، عن روحٍ وطنيَّةٍ نموذجيَّة، فدُستُ دميةً من السيلوليد «made in Germany»، لم أكن أحبُّها أصلًا. قيل لي إنَّ خلاصَ فرنسا رهينٌ بأخلاقي وتقوايَ: فما كان لي أن أحيد عن سواء السَّبيل. كنت أجُول محيطَ كنيسة القلب ـ المقدَّس أنا وصبايا أخرياتٍ، ونحن نهزُّ أعلامًا وننشد. وواظبتُ على كثرة الصلاة، فتعلَّقتُ بها. وشجَّعني في حماستي الأب دومينيك الذي كان قسّيسًا في مدرسة أديلايد. مرتديةً فستانًا من قماش التّول،

ومعتمرةً قبّعة شارلوت[1] بالدّانتيلا الأيرلنديَّة، قمتُ بمناولتي الأولى الفرديَّة: ومن يومها، صرت مثالًا يُضربُ لأختيَّ الصَّغيرتيْن. وكافأني الربُّ بأن نُقل والدي إلى وزارة الحرب، بسبب قصورٍ في القلب.

مع أنّي يومها كنت شديدة الحماسة، إذ كان أوَّلَ أيَّام الموسم الدِّراسي: وأنا مشتاقةٌ إلى المدرسة، والفصولِ المهيبة كالقدَّاسات، وصمتِ الأروقة، وابتسامة الآنسات العذبة؛ كنّ يرتدين تنانير طويلة، وصدَّاراتٍ عالية، ومنذ أن تحوَّلَ قسمٌ من المؤسَّسة إلى مستشفى، صرن كثيرًا ما يرتدين زيّ ممرّضات؛ ويَبدين تحت الرّداء الأبيض المرقّط بالأحمر مثلَ قدِّيساتٍ، ويأخذ بي التأثُّر كلَّما ضمَّتني إحداهنَّ إلى صدرها. كنت ألتهم على عجلٍ الحساءَ والخبز الأسمر اللذيْن حلَّا محلّ ما كنتُ آكله قبل زمن الحرب: الشوكولاتة وحلوى البريوش؛ وأنتظر نافدةَ الصّبر أن تفرغ أمّي من إلباس أُختيَّ. ثلاثتنا نرتدي معاطف زرقاء سماويَّة، خيطت من ملاءةٍ عسكريَّةٍ حقيقيَّة، وفُصِّلت على شكل عباءاتٍ عسكريَّة.

وكانت أمّي تقول لصاحباتها المعجبات أو المندهشات: «انظُرن، لقد صنعتُ له حتَّى حزامَ الظّهر!». وأثناء خروجنا من العمارة، كانت أمّي تمسك بيدَي أختيَّ الصَّغيرتيْن. ونمرُّ بهيأةٍ حزينةٍ من أمام مقهى لا روستوند الذي يكون قد فتح لتوِّه في ضجَّةٍ كبيرة. يقع المقهى تحت شقَّتنا، وهو المكان الذي يُعَدّ، كما كان يقول بابا،

(1) قبّعة نسائيَّة، كانت منتشرةً في أوساط الطّبقات المتواضعة بين القرنيْن الثامن عشر والتاسع عشر خاصَّة، وتغطّي الرأس وتُعقد تحت الذّقن.

ملتقى الانهزاميّين؛ تثير الكلمةُ فضولي، فيشرح لي بابا: «إنَّهم أناسٌ يظنُّون أنَّ فرنسا ستُهزم»، «ينبغي أن نرميهم جميعًا بالرَّصاص». ولم أكن أفهم. إنَّ المرء لا يَظنّ عُنوةً ما يَظنُّه: هل يمكن أن نعاقَبَ لأنَّ أفكارًا ما تخطر ببالنا؟ إنَّ الجواسيس الذين يوزّعون على الأطفال حلوى مسمومة، وأولئك الذين في المترو يخِزون النّساء الفرنسيَّات بإبرٍ مسمومة، يستحقُّون الموت؛ لا خلاف في ذلك: لكنَّ أمرَ الانهزاميّين يتركني في حيْرة. لم أحاول أن أسأل أمّي: هي تردِّد دومًا أجوبة بابا نفسها.

أختاي الصَّغيرتان لا تحثَّان السَّير؛ فيبدو لي سياج حديقة لوكسمبورغ طويلًا، لا نهاية لطوله. ثمَّ ها أنا ذي أخيرًا أجتاز باب المدرسة، وأصعد الدَّرج مؤَرجِحةً بمرحٍ محفظتي المنفوخة بكتبٍ جديدة؛ أميِّزُ رائحةَ المرض التي تختلط برائحة طلاء الشَّمع في الأروقة التي شُمِّعت حديثًا؛ تقبِّلني المشرفاتُ. في مستودع الملابس، ألتقي مجدَّدًا برفيقاتي من العام الماضي؛ لم أكن متعلِّقةً بأيٍّ منهنّ على وجه التَّخصيص، لكنَّني كنت أحبُّ الضَّجيج الذي نحدثه معًا. أُبطئُ في البهو الفسيح، أمام الفترينات المليئة بالأشياء الميِّتة وهي تُتمُّ موتَها للمرَّة الثانية: طيورٌ محنَّطةٌ يتساقط ريشُها، نباتاتٌ مجفَّفةٌ تتفتَّت، أصدافٌ تَبهُت. دقَّ الجرسُ، فدخلتُ إلى قاعة القدِّيسة ـ ماركريت؛ جميع قاعات الفصول تتشابه. تجلس التلميذات حول طاولةٍ بيضاويَّة، عليها غطاءٌ من ثوب المولسكين أسود، ويترأَّسُ الجلسة الأستاذُ؛ وتجلس أمّهاتنا في الخلف، فيراقبننا

وهنَّ يحِكن قبَّعات تريكو. قصدت مقعدي، فلاحظتُ أنَّ المقعد بجانبي تشغله فتاةٌ غريبة: سمراء، ضامرة الوجنتيْن، بدت لي أصغر منِّي سنًّا؛ لها عينان كئيبتان برَّاقتان، ظلَّتا تحدِّقان فيَّ بشدَّة.

ـ أنت هي التلميذة المتفوِّقة؟

أجبتُها:

ـ أنا سيلفي لوباج. ما اسمكِ أنتِ؟

ـ أندريه غالار. عمري تسع سنواتٍ؛ أبدو أصغر من سنِّي، لأنَّني احترقت، فلم أَنْمُ كثيرًا. اضطررت إلى أن أوقف دراستي لمدَّةِ عامٍ، لكنَّ أمِّي تريدني أن أستدرك ما ضاع منِّي. هل تستطيعين أن تعيريني دفاتر السنة الماضية؟

قلت: ـ نعم.

ثقة أندريه، وصبيب كلامها السَّريع والدَّقيق شوَّشا تركيزي. كانت تتأمَّلني بملامح حذرة.

قالت وهي تشير إلى ليزيت بحركةٍ خفيفةٍ من رأسها:

ـ أخبرتني جارتي بأنَّكِ أفضل تلميذة. هل صحيح ما قالته؟

أجبتها في تواضع:

ـ كثيرًا ما أكون الأولى.

تفحَّصتُ أندريه؛ شعرها الأسود ينسدل ناعمًا حول وجهها؛ وعلى ذقنها بقعةُ حبر. لا نصادف كلّ يومٍ صبيَّةً احترقت، لذا وددتُ

أن أسألها أسئلةً كثيرةً، لكنَّ الآنسة دوبوا دخلت تجرجر ثوب فستانها الطويل على خشب الأرضيَّة؛ كانت امرأةً مفعمةً بالحيويَّة، لها شاربٌ، وكنت أحترمها كثيرًا. جلست ونادت بأسمائنا؛ رفعت عينيْها صوب أندريه:

ـ وإذن يا طفلتي، هل نشعر بشيءٍ من الخوف؟

أجابت أندريه بصوتٍ هادئ:

ـ لستُ خائفة يا آنسة.

ثمَّ أضافت بنبرةٍ ودودٍ:

ـ ثمَّ إنَّكِ لا تبعثين على الخوف.

تردَّدت الآنسة دوبوا برهةً، ثمَّ ابتسمت واستأنفت النِّداءَ.

كان الخروج من قاعة الدَّرس يتمّ وفق طقسٍ راسخ؛ تقف الآنسة عند فتحة الباب، فتصافح يد كلّ أمٍّ وتقبِّلُ جبينَ كلّ طفلة.

وضعت يدها على كتف أندريه:

ـ لم يسبق لكِ قطّ أن درستِ في فصلٍ؟

ـ كلَّا؛ حتَّى اللّحظة، ظللتُ أدرس في المنزل، لكنَّني صرت الآن أكبر من أن أدرس خارج الفصل.

قالت الآنسة:

ـ أتمنَّى أن تسيري على خطى أختكِ الكبرى.

قالت أندريه:

ـ أوه! نحن مختلفتان أشدّ الاختلاف. مالو شابهت بابا، فهي مثله تحبُّ الرياضيَّات. أمَّا أنا فأفضِّل الأدب.

لكزتني ليزيت بكوعها؛ لا نستطيع القول إنَّ أندريه كانت وقحة، لكنَّ النَّبرة التي كانت تتحدَّث بها لا تليقُ لمخاطبة مُعلِّمة.

قالت الآنسة:

ـ هل تعرفين أين قاعة المطالعة بالنِّسبة للتلاميذ غير الدّاخليّين؟ إن لم يأتِ من يصطحبك فورًا، فينبغي أن تنتظري هناك.

قالت أندريه:

ـ لن يأتيَ لاصطحابي أحدٌ، سأعود إلى المنزل بمفردي.

ثمَّ أضافت سريعًا:

ـ لقد أعلمتْ أمِّي المدرسةَ.

قالت الآنسة دوبوا:

ـ بمفردك؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ثمَّ هزَّت كتفيْها:

ـ ما دامت أمّك قد أعلمت المدرسة...

بدوري، قبَّلتني الآنسةُ على جبيني، ثمَّ تبعتُ أندريه صوبَ المستودع؛ ارتدت معطفها: معطفٌ أقلّ أصالةً من معطفي، لكنَّه

جميلٌ جدًّا؛ معطفٌ من نسيجٍ قطنيٍّ أحمر، مزرَّرٍ بأزرارٍ مذهَّبة؛ لم تكن طفلة شوارع، فكيف يسمحون لها بأن تعود إلى المنزل بمفردها؟ هل تجهل أمّها خطر الحلوى السّامة، والإبر المسمومة؟

سألتها أمّي بينما ننزل الدَّرج أنا وهي وأختايَ: ـ أين تسكنين يا صغيرتي أندريه؟

ـ بشارع غرونيل.

قالت أمّي:

ـ حسنًا! سنرافقك حتَّى نهج سان جرمان. تلك طريقنا.

قالت أندريه:

ـ سيكون من دواعي سروري، لكنْ لا ينبغي أن تزعجن أنفسكنّ بي.

نظرَتُ إلى أمّي بهيأةٍ جادَّة:

ـ تفهمين يا سيِّدتي، نحن سبعة إخوةٍ وأخوات؛ وأمّي تقول إنَّنا ينبغي أن نتعلَّم الاعتماد على أنفسنا.

هزَّت أمّي رأسها، لكنْ كان واضحًا أنَّها لا تؤيِّد كلام الطّفلة.

وما إن صرنا في الشَّارع حتَّى سألتُ أندريه:

ـ كيف أحرقتِ نفسك؟

ـ وأنا أطهو بطاطس في نارٍ مخيّمٍ؛ شبَّت النَّار في فستاني، فاحترق فخذيَ الأيمن حتَّى برز منه العظمُ.

ندَّت عن أندريه حركةٌ تفيد بنفاد صبرها، إنَّ هذه القصَّة القديمة تنغِّصُها.

ـ متى أستطيع أن أطَّلع على دفاترك؟ ينبغي أن أعرف ماذا درستم في السنة الماضية. قولي لي أين تسكنين وسوف آتي عندك عصر اليوم، أو غدًا.

سألتُ أمّي بعينيّ؛ ففي لوكسمبورغ، كان ممنوعًا عليَّ اللَّعبُ مع البنات اللّواتي لا أعرفهنّ.

قالت أمّي بانزعاج:

ـ هذا الأسبوع، غير ممكن. سنرى يوم السبت.

قالت أندريه:

ـ حسنًا، سأنتظر إلى السبت.

تابعتُها وهي تعبر الشَّارع في معطفها القطنيّ الأحمر؛ كانت حقًّا ضئيلةً، لكنَّها كانت تسير بثقة شخصٍ كبير.

قالت أمّي بصوتٍ حالمٍ:

ـ إنَّ خالك جاك يعرف عائلةً تدعى غالار، أصهار آل لافيرني، أبناء عمومة آل بلانشار. لكنَّني أظنُّ أنَّ أناسًا محترمين لا يمكن أن يتركوا طفلةً في التاسعة من عمرها تتسكَّع في الشوارع.

ناقش والدايَ بإسهابٍ مختلفَ فروعِ مختلفِ العائلات التي تحمل اسم غالار، التي سمعوا بها من قريبٍ أو من بعيد. واستفسَرت

أمّي من الأنسات. لم تكن تجمع والدَي أندريه بآل غالار الذين يعرفهم الخالُ جاك إلّا علاقاتٌ بعيدة مبهمة، لكنَّهم يُعتبَرون أناسًا جيِّدين. إنَّ السيِّد غالار خرّيج مدرسة البوليتكنيك، ويشغل منصبًا جيِّدًا عند سيتروين، ويرأسُ عصبة أولياء أمور أُسرٍ عديدة؛ أمَّا زوجته، واسمها قبل الزواج ريفيير دو بونوي، فتنتمي إلى سلالةٍ كبيرة من الكاثوليك المتشدِّدين، وتتمتَّع بتقديرٍ بالغٍ من طرف عضواتِ أبرشية القدِّيس توما الأكويني. وقطعًا لأنَّ السيِّدة غالار قد بلغتها ريبةُ أمّي، فقد أتت في السبت التالي تصطحب أندريه ساعةَ خروجها من الدّرس. كانت امرأةً جميلة، غامقة العينيْن، تضع في عنقها عقدَ مخملٍ أسود أقفلته بحُلْيةٍ عتيقة؛ وسرعان ما اقتحمت قلبَ أمّي، إذ قالت لها إنَّها تبدو كأنَّها أختيَ الكبرى، وأخذت تناديها بـ«سيِّدتي الصَّغيرة». أما أنا، فلم يعجبني عقدها المخمل.

عن طيب خاطرٍ، حكت السيِّدة غالار لأمّي محرقة أندريه: تصدُّعُ اللحم، ظهورُ تقرُّحاتٍ ضخمة، وضمادات الأمبرين، وهذيان أندريه، وشجاعتها؛ وأثناء اللَّعب، وجَّه رفيقٌ صغيرٌ إليها ركلةً فتفتَّقت الجروح من جديد: لقد بذلت جهدًا عظيمًا لكيلا تصرخ، حتَّى أُغمي عليها. وعندما عادت إلى المنزل لتطلّع على كراريسي، نظرتُ إليها بتقديرٍ بالغ. كانت تدوِّنُ ملاحظاتٍ بخطٍّ جميلٍ تمَّ تَشَكُّلُه، وأنا أفكِّر في فخذها المتقرِّح، تحت التنّورة الصَّغيرة ذات الطيَّات. لم أَخبِر قطُّ شيئًا مثيرًا للاهتمام إلى هذه الدَّرجة. فجأةً، انتابني الانطباع بأنَّ حياتي لم تشهد قطّ أيّ حدثٍ يُذكر.

كلُّ الأطفال الذين أعرفهم كانوا يشعرونني بالملل، بينما تجعلني أندريه أضحك. حين نسير بين الفصول أثناء الاستراحة، كانت تحاكي، محاكاةً مذهلةً، حركات الآنسة دوبوا المفاجئة؛ صوت المديرة، الآنسة فيندرو، الناعم. كانت تعرف من شقيقتها الكبرى الكثير من أسرار المدرسة: إنَّ أولئك الآنسات يتبعن الرهبانيَّة اليسوعيَّة، لذا يرتدين الشّريطَ على الجانب حين يكنّ ما يزلن مستجِدَّات، ثمَّ ينقلنه إلى الوسط حين يتعهَّدن بأن ينذرن أنفسهنّ لخدمة الربّ. الآنسة دوبوا التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، كانت أصغرهنّ سنًّا: لقد اجتازت البكالوريا في العام الماضي، وشاهدتها التلميذات الكبيراتُ، في السوربون، محمرَّةً من الخجل، محرجةً من تنانيرها. كنت أُحرج قليلًا من استخفاف أندريه، لكنَّني أجدها مع ذلك طريفةً، فأجاوبها، حين ترتجلُ حوارًا يجمع بين اثنتيْن من مدرّساتنا. وكانت محاكاتها الهزليَّة دقيقةً لدرجة أنَّنا، كثيرًا ما كنَّا نتبادل اللّكز بالمرفقيْن خلسةً، ونحن نتابع الآنسة دوبوا تفتح سجلًّا أو تغلق كتابًا؛ حتَّى إنِّي في مرَّةٍ قد تلبَّستني نوبةٌ من الضّحك، كدتُ أُطرد على إثرها من الفصل، لولا أنَّ سلوكي كان بالعموم قويمًا.

في المرَّات الأولى التي ذهبت فيها للّعب عند أندريه، أصابني الفزع؛ فضلًا عن إخوتها وأخواتها، كان شارع غرونيل يعجّ دومًا بأسرابٍ من أبناء العمومة والأصدقاء؛ يتراكضون، ويصيحون، ويغنُّون، ويتنكَّرون، ويقفزون على الطاولات، ويُسقطون الأثاث. أحيانًا، تتدخَّل مالو، التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها،

متظاهرةً بأنَّها شخصٌ مهمٌّ، لكنْ على الفور يرتفع صوت مدام غالار: «دعِي الأطفالَ يمرحون». كنت أعجب للامبالاتها بالجروح والنتوء والبُقع، والصحون المكسورة. فتقول لي أندريه بابتسامةٍ مظفَّرة: «أمِّي لا تغضب أبدًا». ونهاية الظهيرة، تدخل علينا مدام غالار الغرفة التي خرّبناها، وعلى شفتيْها ابتسامةٌ. تقوِّمُ كرسيًّا، وتمسح جبين أندريه: «ها أنتِ تسبحين في العَرَق مجدَّدًا!» تضمُّ أندريه نفسَها إليها، ولوهلةٍ ينقلب وجهُها؛ فأشيح بنظري بعيدًا، في انزعاجٍ، يخالطُه بلا ريبٍ شيءٌ من الغيرة، وربَّما الحسد، وشيءٌ من تلك الرَّهبة التي نشعر بها إزاء الأمور المُستغلَقة.

كنت قد عُلِّمت ضرورةَ أن أحبَّ أمّي وأبي على قدم المساواة. أمَّا أندريه، فلم تكن تخفي أنَّها تفضِّل أمَّها على أبيها. قالت لي ذات مرَّةٍ ببساطة: «أبي جادٌّ أكثر من اللَّازم». وكان السيِّد غالار يتركني في حيرةٍ من أمري، لأنَّه لم يكن يشبه والدي. والدي لم يكن يَحضر القدّاسَ البتَّة، وكان يبتسم حين يسمعنا نتحدَّث عن معجزاتِ منطقة لورد. سمعته يقول، ذات مرَّةٍ، إنَّه لا يدين إلَّا بدينٍ واحدٍ: حبُّ فرنسا. ولم تكن تزعجني قلَّةُ تقواه؛ كذلك أمِّي كانت ترى الأمر طبيعيًّا، على الرَّغم من شدَّة تقواها؛ إنَّ رجلًا متفوِّقًا مثل أبي، لا بدَّ أنّ يرتبط مع الربّ بعلاقاتٍ أشدَّ تعقيدًا من تلك التي ترتبط بها معه النساء والفتيات الصغيرات. أمَّا السيِّد غالار، فكان كلّ يوم أحد يقوم بالمناولة مع أسرته، وكانت لديْه لحيةٌ طويلة، ونظَّارةٌ يدويَّةٌ؛ وفي أوقات فراغه، كان يهتمّ بالأعمال الاجتماعيَّة. شعره الحريريّ،

وفضائله المسيحيَّة كانت تُصبغ عليه صبغةً أنثويَّةٍ، فيصغُر شأنُه في عينيّ. ثمَّ إنَّنا لم نكن نقابله إلَّا لمامًا. مدام غالار هي من كان يحكمُ المنزل. وكنتُ أحسدُ أندريه على الحريَّة التي تتركُها لها، لكنْ على الرَّغم من التلقائيَّة التي كانت تتحدَّث بها إليَّ إلَّا أنَّني لم أشعر قطّ بالراحة أمامها.

أحيانًا، كانت أندريه تقول لي: «لقد تعبت من اللَّعب». فنذهب لنجلس في مكتب السيِّد غالار، ولا نضيء المكان حتَّى لا يُكتشف أمرُنا، وهناك نتحادث: وهذه أيضًا متعةٌ جديدة اكتشفتُها. فوالدايَ كانا يتحدَّثان إليَّ، وأنا كنتُ أتحدَّث إليهما، لكنَّنا أبدًا ما كنَّا نتحادَثُ. أمَّا مع أندريه، فتجمعني أحاديثُ فعليَّةٌ، أحاديثُ من قبيل تلك التي تجمع بين أبي وأمِّي في المساء. وكانت هي قد قرأت الكثير من الكتب، خلال فترة نقاهتها الطويلة، وفاجأتني، إذ كان يبدو أنَّها تصدِّق أنَّ تلك القصص التي تحكيها الكتبُ، قد حدثت حقًّا: كانت تكره هوراثيوس وبوليوكتوس، وكانت معجبةً بدون كيخوته وسيرانو دي بيرجوراك، كأنَّما هم شخوصٌ من لحمٍ ودم. وإذ كانت قراءاتها تلامسُ قرونًا خلت، فقد كانت لديْها مواقفُ راسخة: كانت تحبُّ الإغريق، ويزعجها الرومان. لا تشعر بأيّ تعاطفٍ إزاء مِحنِ لويس السابع عشر وأسرتِه، بينما يعصر قلبَها موتُ نابليون.

كثيرٌ من تلك الآراء كان هدَّامًا، ولكنْ بالنَّظر إلى صغر سنِّها، فإنَّ الأنسات كنَّ متساهلاتٍ معها. كان يُقال في المدرسة: «إنَّ لهذه الطّفلة شخصيَّةً قويَّةً». وما زالت أندريه تتدارك تأخُّرها بسرعةٍ،

حتَّى إنَّني بالكاد تفوَّقت عليها، وبفارقٍ ضئيل، في مادَّة التَّراكيب، وحازت على شرفِ نسخِ نصَّيْن من تحريرها في الدفتر الذهبيّ. وكانت تُتقنُ العزف على البيانو لدرجة أنَّها صُنِّفت رأسًا في فئة المتوسطات؛ وفي أثناء ذلك، بدأت تتعلَّمُ أيضًا دروس الكمان. ولم تكن تحبّ الخياطة، لكنَّها كانت سديدةً. وبمهارةٍ، كانت تصنع حلوى الكراميل، والسابليه، وتروفل الشوكولاته؛ وعلى ما بها من هشاشةٍ ووهنٍ، إلَّا أنَّها كانت تُتقن حركة الانقلاب، وتفريج الساقيْن، وكلّ صنوف الشَّقلبات. لكنَّ أكثر ما كان يمنحها هيبةً عندي، هو بعض السِّمات الفريدة التي لم أكن أُدرك لها كُنهًا: حين ترى أندريه خوخةً أو أوركيدة، أو حتَّى إن سمعت، مجرَّد السَّمع، كلمتَي خوخة أو أوركيدة، كانت تتملَّكُها رجفةٌ، ويقشعرّ ذراعاها. وتلك هي اللَّحظة التي تتجلَّى فيها، بأشدّ ما يكون التجلّي إثارةً، تلك الهبةُ التي حبَتها بها السَّماءُ: شخصيَّتُها.

وبيني وبين نفسي، كنتُ أقول إنَّ أندريه، بالتَّأكيد، من أولئك الأطفال المعجزات الذين تُروى حكاياتُهم لاحقًا في الكتب.

* * *

غادرت معظم تلميذات المدرسة باريس، في منتصف يونيو، بسبب القنابل ومدفعيَّة بيرثا الهائلة.

وغادر آل غالار، في جملة المغادرين، إلى منطقة لورد؛ إذ كانوا يشاركون، كلّ عام، في الحج الكبير هناك. الابن يحمل النقَّالة، والبنات الأكبر سنًّا يغسلن الأواني مع والدتهنَّ في مطابخ

دار العجزة. وكان يثير إعجابي أن يُعهد إلى أندريه بمثل تلك المهام التي يؤدّيها الكبارُ، ولذلك زاد تقديري لها. على أنَّني كنت فخورةً بعناد والديَّ البطوليّ: فببقائنا في باريس، أظهرنا لجنودنا الصناديد أنَّ المدنيِّين «يقاومون». بقيت وحدي في الصفّ مع صبيَّةٍ حمقاءَ، في الثانية عشرة من عمرها، فشعرت بنفسي شخصًا ذا شأنٍ. في صباح أحد الأيَّام، عندما وصلت إلى المدرسة، ألفيتُ المعلِّمات والطالبات يحتمين بالقبو؛ فلمَّا عدت إلى المنزل ضحكنا لذلك ما طاب لنا الضحك. فنحن، حين تدوّي صافرات الإنذار، لم نكن ننزل إلى القبو، بل إنَّ مستأجري الطوابق العليا ينزلون عندنا، ليحتموا بمنزلنا، فينامون على الأرائك في غرفة الاستقبال. وكان يعجبني كلّ ذلك الهياج.

* * *

سافرنا، أنا أمّي وأخواتي، إلى ساديرناك نهاية شهر يوليو. كان جدّي ما يزال يتذكّر حصار 71، فظنَّ أنَّنا في باريس نأكل الجرذان: ظلّ لشهريْن يحشونا بالدجاج وحلوى الكلافوتي. عشتُ هناكَ أيَّامًا سعيدة. كانت ثمَّة مكتبةٌ في الصالون، مليئةٌ بالكتب القديمة التي أصابَ أوراقَها الصدأُ. وُضعت الأعمالُ المحرَّمة في الأعلى، وسُمح لي بأن أقلِّب بحريَّةٍ في الرّفوف السُّفلى. كنتُ أقرأ، وألعب مع أخواتي، وأتنزَّه. تنزَّهت كثيرًا في ذلك الصيف. كنت أتمشَّى في بساتين الكستناء، فيجرحُ أصابعي نباتُ السّرخس، وأقطف على امتداد الدُّروب، وسط الأشجار، باقاتٍ من زهور العَسلة والمُضاض،

وأتذوَّق ثمار العلّيق والشّماري والقرّانيا، وتوت شجرة الباربارِيس الحامض. واستنشقُ العطر العنيف للقمح المزهر. وألتصق بالأرض محاولةً مباغتةَ الأريج السرّيّ لنبات الخلنج. ثمَّ أجلس في المرج الكبير، تحت الحور الأبيض، وأفتح رواية لفنيمور كوبر. وإذ تهبُّ الرّيحُ توشوشُ أشجارُ الحور، وتبعث فيَّ الرياح شعورًا بالرّفعة. يُهيَّأُ لي أنَّه من أقصى الأرض إلى أقصاها، تتحادثُ الأشجارُ، وتتحدَّثُ إلى الربّ. كانت تلك موسيقى وصلاةً تعبُر قلبي قبل أن تصعد إلى السماء.

مُتَعي كانت لا تُعدُّ ولا تُحصى، لكنْ لم يكن يسيرًا عليَّ وصفُها؛ لم أرسل إلى أندريه سوى بطاقاتٍ بريديَّة مع أسطرٍ وجيزة. وهي أيضًا لم تكتب إليَّ؛ كانت عند جدَّتها لأمّها، في إقليم لاند، تركب الخيل، وتستمتع ما طاب لها الاستمتاع. لم تعُد إلى باريس حتى منتصف أوكتوبر. ولم أكن أفكّر فيها. أثناء العطلة، لم تكن تقريبًا تخطر ببالي البتَّة حياتي في باريس.

ذرفت بعض الدموع وأنا أودِّع أشجار الحوْر؛ إنَّها علامة على أنَّني أكبُر، أصير عاطفيَّة. ولكنْ، في القطار، تذكَّرت كم أحبُّ الدخول المدرسيّ. على رصيف المحطَّة، كان ينتظرنا أبي، في بزَّته الزرقاء السماويَّة، وقال إنَّ الحرب ستنتهي قريبًا. بدت الكتب المدرسيَّة أجدَّ ممَّا كانت عليه في السنوات الماضية: كانت أكبر وأجمل، ولها تحت الأصابع طقطقةٌ، ورائحتها طيِّبة؛ وحدائق لوكسمبورغ تعبقُ برائحةٍ عنيفةٍ، خليطٍ من الأوراق المتساقطة والأعشاب المحروقة؛ أغدقت عليَّ الآنسات بالعناق، وحازت واجباتي التي أنجزتها أثناء

العطلة أعلى الثناء. فلماذا كنت أشعر بالبؤس؟ في المساء، بعد العشاء، كنت أجلس في غرفة الاستقبال، أقرأ أو أكتب قصصًا في دفتر؛ شقيقاتي نائمات أقصى البهو، وأبي يقرأ لأمّي، وذاك من أفضل الأوقات في اليوم. فها أنا ذي مستلقيةٌ على البساط الأحمر، خاملةٌ، متبلِّدة. أتأمَّلُ الدولاب النورمانديّ، والساعة الخشبيَّة المنحوتة التي تخفي في جوفِها مخروطَيْ صنوبرٍ نحاسيَّيْن وظلماتِ الزمن؛ في الجدار، ينفتح فمُ السخَّان: عبر القضبان المذهَّبة نستشعر دفءَ نفَسٍ كريهٍ يصعد من الهاوية؛ بغتةً، تملَّكني الخوفُ من ذاك الظلام كلّه، ومن تلك الأشياء الصامتة من حولي. وكان يتناهى إليَّ صوتُ أبي، وعرفت عنوان الكتاب الذي يقرأه: **بحثٌ في التفاوت بين الأعراق البشريَّة**، بقلم كونت غوبينو؛ في السنة الماضية، كان الكتاب الذي يقرأه هو: **أصول فرنسا المعاصرة**، بقلم إيبوليت تين. وفي العام القادم، سيبدأ كتابًا جديدًا، وسأكون أنا هنا، ما أزال بين الدولاب والساعة. كم سنة؟ كم ليلة؟ أهذا هو العيش: أن نقتُل النهارات، نهارًا تلو نهار؟ هل سأقضي حياتي هكذا في ضجرٍ حتى الموت؟ وأقول لنفسي إنَّني أتحسَّرُ على ساديرناك. وقبل أن أنام، أذرف بعض الدُّموع لذكرى أشجار الحور.

* * *

بعد يومَيْن اثنيْن، أدركت الحقيقة في رمش العين. دخلتُ إلى قاعة سانتكاترين، فابتسمت لي أندريه؛ ابتسمتُ لها أيضًا ومددت يدي:

ـ منذ متى عدتم؟

ـ اللَّيلة الماضية.

نظرتْ إليَّ أندريه بشيءٍ من خبث: طبعًا، كنتم هنا مع بداية العام الدراسي؟

أجبتها:

ـ نعم.

أضفت:

ـ هل حظيتِ بعطلةٍ جيِّدة؟

ـ جيِّدة جدًّا، وأنتِ؟

ـ جيِّدة جدًّا.

تحدَّثنا في تفاهات، مثل النّاس الكبار؛ لكنَّني أدركتُ بغتةً، في جوٍّ من الدَّهشة والفرح، أنّ فراغ قلبي، والطعم الكئيب الذي ميَّزَ أيَّامي كان له سببٌ واحدٌ لا غير: غياب أندريه. الحياة بدونها ليست حياةً.

جلست الآنسةُ دوفيلنوف على مقعدها، عَرشِ الأسقف، وأنا أردِّد في نفسي: «بدون أندريه، لا حياة لي». ينقلبُ فرحي إلى قلق، فأسأل نفسي: وماذا إن ماتت، ما سيكون مصيري؟ سأكون جالسةً على هذا المقعد، فتدخل المديرة، وتقول بصوتٍ مهيب: «لنُصَلِّ يا بناتي، استدعى الربّ رفيقتَكُم الصَّغيرة أندريه غالار في ليلة أمس». حسنًا! الأمر بسيط. لقد قرَّرت، حين يحدث ذلك، سأنزل عن

مقعدي وأهوي ميّتةً أيضًا. الفكرة لا تخيفني، لأنّنا سنلتقي فورًا عند أبواب السماء.

في الحادي عشر من نوفمبر، احتفلنا بالهدنة؛ كان الناس يقبّلون بعضهم بعضًا في الشارع. أربع سنوات وأنا أصلّي لأجل هذا اليوم العظيم، وكنت أتوقّع تحوُّلاتٍ مذهلة. استعاد قلبي ذكرياتٍ ضبابيَّة. استعاد أبي ملابسه المدنيَّة، وغير ذلك لم يحدث شيءٌ يُذكر. وظلَّ يتحدَّث باستمرارٍ عن مالٍ سلبَه منه البلاشفة؛ إنَّ هؤلاء الرجال البعيدين، الذين يشابِه اسمُهم اسمَ البوشيس[1] خطورةً، يبدو أنَّهم قد وُهبوا قوىً رهيبة. ثمَّ إنَّ الجنرال فوش قد ترك لهم هامشًا للمناورة: كان ينبغي أن يقتحم برلين. كان أبي يتوقَّع مستقبلًا مظلمًا، حتَّى إنَّه لم يجرؤ على إعادة فتح مكتبه التجاريّ. وقد وجد لنفسه وظيفةً في وكالة تأمين، لكنَّه أعلن علينا ضرورة التقشُّف في المصاريف، وتغيير نمط حياتنا. صرفت أمّي إليسا، وكانت هذه أصلًا لا تُحسن صنعًا ـ كلّ مساءٍ تخرج مع إطفائيّين ـ؛ وصارت تتحمَّل كلّ أعباء المنزل. في المساء، تكون متجهِّمة، وأبي كَحالِها. وأُختاي تبكيان أغلب الوقت. أمَّا أنا، فما دامت لديَّ أندريه، فسيَّان عندي هذا وذاك.

وما زالت أندريه تنمو وتتقوَّى؛ ما عدت أفكِّر في إمكانيَّة أن تموت. غير أنَّ خطرًا آخر صار يتهدَّدني: المدرسة لا تنظر إلى صداقتنا بعين الرّضا. كانت أندريه طالبةً مُجدَّة، وما كنت أنا أحتلُّ

(1) البوش أو البوشيس، اسمٌ قدحي كان يُطلق على الجنود الألمان.

المرتبة الأولى، إلّا لأنّها كانت تأنَفُها؛ كنتُ معجبةً بلامبالاتها، عاجزةً عن تقليدها. على أنّها خسرت تضامن الآنسات. صرن يعتبرنَها متناقضةً، ساخرةً، متغطرسة، يعِبنَ عليها عقليَّتها الصَّعبة المراس. لم يَتمكَّنَّ قطّ من الإمساك بها متلبِّسةً بالوقاحة، لأنَّ أندريه كانت تعرف جيِّدًا كيف تحفظ حدودها، وربَّما هذا هو أكثر ما كان يثير غيظهنّ. على أنّهن سجَّلن عليها هدفًا، يوم أداء البيانو. كانت قاعة الحفلات ممتلئة: في الصفوف الأماميَّة، الطالبات مرتدياتٍ أجمل فساتينهنّ، وشعورهنّ مجعَّدةٌ، ومعقودة؛ خلفهنّ المعلّمات والمشرفات، مرتدياتٍ صداري من حرير، وقفّازات بيضاء. وفي أقصى المكان الآباءُ وضيوفهم. وأندريه، في فستانٍ أزرقَ من ثوب التَّافتا، تعزفُ قطعةً تراها والدتُها صعبةً جدًّا بالنِّسبة إليها، وبالعادة كلَّما عزفَتها، تخرِّبُ بعض نوتاتها. وأنا قد بلغ منّي التأثُّر كلّ مبلغٍ، وأنا أرى كلّ تلك الأنظار الحاقدة تركِّز عليها، وهي توشك أن تلج الممرّ الشائك؛ وقد أدَّت المعزوفة بلا خطأٍ، ثمَّ نظرت إلى والدتها نظرة المنتصر، وأخرجت لها لسانها. ارتجفت جميع الفتيات الصغيرات بشعورهنّ المجعَّدة؛ وسعلت بعض الأمَّهات بصوتٍ فاضحٍ، وتبادلت الآنسات النّظر، واحمرّ وجه المديرة كلّ الاحمرار. أمَّا أندريه، فقد نزلت من المسرح، وركضت إلى والدتها التي قبَّلتها ضاحكةً في حرارة، حتَّى إنَّ الآنسة فوندرو لم تجرؤ على توبيخها. ولكنْ بعد بضعة أيَّامٍ من ذلك، اشتكت الآنسةُ لأمّي من التأثير السيِّئ الذي تمارسه أندريه عليَّ: نتحدَّث في الفصل، وأتهكَّمُ، وأشردُ. لذا، لمّحت الآنسةُ إلى إمكانيَّة التفريق بيننا في الفصل، وكان أن قضيتُ أسبوعًا في كرب.

غير أنَّ مدام غالار التي كانت تقدِّرُ حماستي قد أقنعت أمّي بسهولة بأن تتركنا وشأننا، وبما أنهما كانتا زبونتيْن ممتازتيْن: لأمّي ثلاث بنات، وللسيِّدة غالار ستُّ بناتٍ والكثيرُ من اللَّباقة، فقد ظللنا على حالنا، نجلس جنبًا إلى جنب كما كنَّا من قبل.

هل كانت أندريه لتحزن لو أنَّنا مُنعنا من رؤية بعضنا بعضًا؟ بالتَّأكيد، كان حزنُها ليكون أقلّ من حزني أنا. كانوا يسمُّوننا العصفورتيْن اللَّتيْن لا تفترقان، وكانت هي تفضِّلني على رفيقاتنا جميعًا. ولكن كان يبدو لي أنَّ التقدير التي تكنُّه لأمّها يجعل مشاعرها الأخرى كلّها تبدو شاحبة. كانت أسرتُها تعني لها الكثير. فقد كانت تمضي أوقاتًا طويلةً في تسلية التوأمتيْن الصّغيرتيْن، تحمِّمُ البدَنَيْن المتشابهيْن المتخالطيْن، وتلبِسُهما؛ وتجد معنىً وتفسيرًا لتمتماتِهما، وإيماءاتهما غيرِ المفهومة، وتحضنهما بحبٍّ. ثمَّ هناك الموسيقى التي تشغل حيِّزًا كبيرًا من حياتها. حين تجلس إلى البيانو، أو حين تضع كمانَها في تجويف رقبتها، وتنصتُ برويَّةٍ إلى العزف الذي يولد من أصابعها، آنذاك أحسب أنَّني أسمعُها تناجي نفسَها؛ وعقب تلك المناجاة، عقب حوارها الطويل مع نفسها، حوارها الذي يستمرُّ مكتومًا في قلبها، تبدو لي محادثاتنا غايةً في الصبيانيَّة. ويحدث أحيانًا أن تصاحب مدام غالار، التي تعزف على البيانو بمهارةٍ بالغة، في العزف أندريه وهي تؤدِّي مقطوعةً على الكمان؛ وإذّاك، أشعر أنا بأنَّني قد أُقصيتُ تمامًا. كلَّا، لم يكن لصداقتنا عند أندريه الأهمِّيَّة نفسها التي كانت لها عندي، غير أنَّ تقديري لها كان يغطِّي على معاناتي.

في العام التَّالي، غادر والداي شقَّتنا في شارع مونبارناس، وانتقلنا للعيش في مسكنٍ ضيِّق بشارع كاسيت، حيث لم أعد أنعمُ بركنٍ مُفردٍ لي، خاصٍّ بي وحدي. وقد عرضت عليَّ أندريه القدوم والدِّراسة عندها متى ما طاب لي ذلك. وفي كلِّ مرَّةٍ أدخل عليها الغرفة، كان يأخذ بي التأثُّر كلّ مأخذٍ، حتَّى إنَّني أوشك أن أرسُمَ علامة الصليب. فوق رأس سريرها، كان ثمَّة صليبٌ من خشب البقس؛ وفي الجهة المقابلة، صورةٌ لرسمةِ القدِّيسة حنّة لدافنتشي؛ وعلى الموقد، صورةٌ للسيِّدة غالار وصورةٌ لقلعة بيتاري؛ وعلى الرفوف، مكتبةُ أندريه الشخصيَّة: دون كيخوته، رحلات جاليفر، يوجيني غراندیه، رواية تريستان وإيزولد التي كانت تحفظ مقاطع منها عن ظهر قلب. كانت تحبُّ بالعادة الكتب الواقعيَّة أو الساخرة: لذا حيَّرني ميلُها إلى هذه الملحمة الغراميَّة. كنت أسائلُ في ضيقٍ الجدرانَ والأشياء المحيطة بأندريه. أودُّ لو أفهم ما كانت تقوله لنفسها عندما ينسابُ قوسُها على أوترِ كمانِها. أودُّ لو أعرف لمَ، مع كلّ هذه العواطف في قلبها، وهذا القدر من الانشغالات، وهذا الكمّ من الهدايا، تتلبَّسُها غالبًا تلك الملامح الشاردة، فتبدو لي كئيبة؟ وكانت أندريه شديدة الورع. إذ كان يحدث، حين أذهب للصلاة في الكنيسة، أن أجدَها راكعةً أسفلَ المذبح، ورأسها بين يديْها، أو باسطةً ذراعيْها صوبَ محطَّةٍ من محطَّاتِ درب الصليب. هل كانت تفكِّر في الالتحاق بالرَّهبنة لاحقًا؟ ومع ذلك، كانت متشبِّثةً بحريَّتها وبمباهج هذا العالم. كانت عيناها تومضانِ وهي تحكي لي عن عطلاتها: تقضي ساعاتٍ تركض على ظهور الخيل عبر غابات الصنوبر التي

تسلخُ أغصانُها المنخفضة وجهَها، وتسبح في مياه البرك الرَّاكدة، ومياه نهر الأدور الجارية. أكانت تلك هي الفردوسُ التي تحلمُ بها كلَّما سكنت، شاردةَ النّظرة أمامَ دفاترها؟ ذات يومٍ، ضبطتني متلبِّسةً بمراقبتها، فضحكَت محرجةً.

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ هل تظنِّين أنَّني أضيِّع وقتي؟

ـ أنا؟ كلَّا!

تأمَّلتني أندريه بنظرةٍ ساخرةٍ بعض الشَّيء: ألا يحدث لكِ أنت أن تحلمي بأشياء؟

أجبتُ في ذلٍّ: لا.

وما الذي كنت لأحلم به؟ أحبُّ أندريه حبًّا يسمو على كلّ ما سواه، وها هي ذي بقربي.

لم أكن أحلم، كنت أحفظ دروسي دائمًا، وأبدي اهتمامًا بكلِّ شيء؛ وكانت أندريه تسخر منِّي قليلًا؛ الحقُّ أنَّها كانت تسخر، بدرجةٍ أو بأخرى، من الجميع؛ وقد تقبَّلتُ سخريَّتها برحابة صدر. على أنَّها ذات مرَّةٍ، جرحتني جرحًا بالغًا. في ذلك العام، قضيت عطلة عيد الفصح، استثناءً، في سادرناك. اكتشفتُ الرّبيع، فانبهرت. جلست إلى طاولة حديقة، مواجهةً ورقةً بيضاء، وصرفتُ ساعتيْن أصفُ لأندريه العشبَ الفتيَّ، المرصَّعَ بالنَّرجسِ البرّيّ وزهرةِ الربيع، وروائحَ الوستارية، وزرقةَ السَّماء، وانفعالات نفسي العظيمةَ. لم تجبني. ولمَّا التقيتها بمستودع الملابس في المدرسة، سألتها عاتبةً:

ـ لماذا لم تكتبي لي؟ ألم تصلكِ رسالتي؟

أجابت أندريه: بلى، وصلتني.

فقلتُ:

ـ أنتِ إذن كسولةٌ قذرة!

ضحكت أندريه:

ـ ظننتُك أرسلتِ لي بالخطأ واجبًا مدرسيًّا...

شعرت بحُمرة الخجل تلطّخ وجهي:

ـ واجب؟

قالت أندريه:

ـ هيًّا، لا تقولي لي إنَّك بذَّرت كلّ ذاك الإنشاء الأدبيّ لأجلي أنا وحدي! أنا متأكّدةٌ من أنَّها مسوَّدة موضوعٍ إنشائيّ: «وصف الربيع».

قلتُ:

ـ كلَّا. لا بدَّ أنَّ الرِّسالةَ رديئةٌ أدبيًّا، لكنَّني كتبتُها لكِ وحدك.

ثمَّ دنت منَّا الصّغيرتان بولار، فأوقفنا الحديث عند تلك النُّقطة. لكنْ في الصفّ، ارتبَكتُ أثناء تمرين اللاتينيَّة، لقد وجدَتْ أندريه رسالَتي سخيفةً، وقد آلمني ذلك. ولكنْ ما آلمني في المقام الأوَّل هو أنَّها لا تُدرك حاجتي إلى أن أتقاسم معها كلّ شيء. ذلك أكثر ما أحزنني: لقد أدركت للتوّ أنَّها تجهل كلّ الجهل ما أحملُه لها من مشاعر.

خرجنا من المدرسة سويَّةً. لم تَعُد أمّي ترافقني، وصرت، بالعادة، أعود مع أندريه. أمسكتني من كوعي؛ كانت حركةً غير مألوفةٍ منها، إذ كنَّا نمشي دائمًا على مسافةٍ، وقالت بحماسةٍ: آسفة على ما قلته لكِ يا سلفي. لم أكن لطيفةً. أنا أعلم حقًّا أن رسالتك لم تكن واجبًا.

قلت:

ـ أحسب إذن أنَّها كانت سخيفة.

ـ لا، مطلقًا! الحقيقة هي أنَّني، يوم استلمتُها، كنت في مزاجٍ كئيبٍ، بينما بدوتِ أنتِ مبتهجةً!

سألتها:

ـ لماذا كنتِ في مزاجٍ سيِّئ؟

لزمت أندريه الصمت لحظةً:

ـ هكذا، لأجل لا شيء؛ ولكلِّ شيءٍ؛ لا شيء.

تردَّدَتْ لوهلةٍ، ثمَّ قالت بغتةً: لقد تعبت من كوني طفلةً. ألا ترين أنَّ الأمرَ طالَ أكثر ممَّا ينبغي؟

نظرتُ إليها في دهشة؛ لقد كانت أندريه أكثر حرِّيَّةً منِّي، وأنا على الرَّغم من أنَّ بيتنا لم يكن بهيجًا، إلَّا أنَّني لم أكن أريد أن أكبر على الإطلاق. كنت أرتعبُ كلَّما فكَّرتُ في أنَّني بلغتُ الثالثة عشرة من عمري.

قلت لها: لا. إنَّ حياة الكبار تبدو لي رتيبةً جدًّا. أيَّامهم تتشابه. يكفُّون عن التعلُّم...

أجابت أندريه نافدة الصَّبر:

ـ آه! ليست الدِّراسة وحدها ما يهمّ في الحياة.

وددتُ لو أعلِّق: «ليست الدِّراسة وحدها ما يهمّ في الحياة، ثمَّة أيضًا أنتِ». لكنَّنا غيَّرنا الموضوع. قلت لنفسي في ضيقٍ: الناس في الكتب يعلنون عن الحبّ، وعن الكراهية، يجرأون على قول كلّ ما تختلج به قلوبهم؛ فلمَ هذا مستحيلٌ في الحياة؟ كنت لأمشي يوميْن وليلتيْن، بلا طعامٍ أو شراب، فقط لكي أنعم بلقاء أندريه ساعةً، ولأجنّبها ألمًا: وهي لا علم لديْها ولا خبر!

ظللتُ أيَّامًا أجترُّ تلك الفِكرَ، وبرقت في ذهني بارقةٌ من إلهامٍ: سأعطي أندريه هديَّةً بمناسبة عيد ميلادها.

إنَّ ردود أفعال الآباء غير قابلةٍ للتوقُّع. بالعادة، تجد أمِّي مبادراتي سخيفة. لكنَّها هذه المرَّة أمَّنت على فكرتي، ووافقت عليها. قرَّرتُ أن أصنع لأندريه، على مثالٍ في مجلَّة **الموضة العمليَّة**، حقيبةً يدويَّةً تكون ذروةَ التّرف. اخترتُ ثوبَ حريرٍ أحمرَ وأزرق، موشًّى بالذهب، سميكًا ومتألِّقًا، ثوبًا بدا لي جميلًا مثل حكايةٍ. ثبّتُّه على إطارٍ من الحلفاء صنعته بنفسي. كنت أكره الخياطة، لكنَّني لفرط ما انكببتُ على الشغل، ما كدتُ أفرغ منه حتَّى بدت الحقيبة جميلةً حقًّا، ببطانتها الساتان الكرزيَّة، وثِنياتها. لففتها بورق حرير، ووضعتها في صندوقٍ

من الورق المقوَّى ربطته بأريحيَّة. ويوم بلغت أندريه الثالثة عشرة، رافقتني أمّي إلى حفلة عيد الميلاد. كان قد وصل قبلنا أشخاصٌ، وشعرت بالخوف وأنا أمدّ إلى أندريه علبة الورق المقوَّى.

قلت:

ـ إنَّها هديَّةٌ لعيد ميلادك.

نظرت إليَّ في دهشةٍ، فأضفتُ: لقد صنعتُها بنفسي.

أخرجَت الحقيبةَ الصغيرة اللَّامعة، وتضرّج خدّها بشيءٍ من حُمرة: سيلفي.. إنَّها روعةٌ! ما ألطفك!

وتهيَّأ لي أنَّها كانت لتقبّلني، لو لم تكن أُمَّانا هناك.

وقالت السيِّدة غالار بصوتها الأنيس: «اشكري أيضًا السيِّدة لوباج. فلا بدَّ أنَّها هي من تكبَّدت أكبرَ العناء...»

قالت أندريه، بإيجاز: شكرًا سيِّدتي.

ومجدَّدًا ابتسمت لي، مع نظرةٍ حانية. وبينما تعترض أمّي اعتراضًا واهنًا، شعرت أنا بصدمةٍ صغيرةٍ في جوف معدتي. لقد أدركتُ للتوّ أنَّ السيِّدة غالار لم تعد تحبُّني.

* * *

واليوم، أنا معجبةٌ بنفاذ بصيرة تلك المرأة الحذرة: الحقُّ أنَّني كنتُ في طور التحوُّل. صرتُ أرى مدرِّساتنا شديدات الغباء، وكنتُ أجد متعتي في أن أطرح عليهنّ أسئلةً محرِجة، وأعارضهنّ، وأتلقَّى

ملاحظاتهنّ بوقاحة. وكانت أمّي توبّخني قليلًا. أمّا أبي، فحين أخبره عن مشاكلي مع أولئك الآنسات، كان يضحك. وكان ضحكه ذاك يحرّضني، فلا أرعوِي؛ ثمَّ إنَّني لم أكن أتخيَّل، ولو لوهلةٍ، أنَّ الربّ قد يسيئُه زيْغي. وحين كنتُ أعترف، لم أكن أُبدي أسفًا على أفعالي الصبيانيَّة. كنت أقوم بالمناولة مرَّاتٍ عدَّة في الأسبوع، وشجَّعني الأب دومينيك على أن أطرق سُبل التأمُّل الصّوفي: لا علاقة لحياتي الدنيويَّة المدنَّسة بهذه التجربة المقدَّسة. إنَّ الأخطاء التي أتَّهمُ بها نفسي تتعلَّقُ في المقام الأوَّل بحالاتي النَّفسيَّة: لقد خمدت حماستي، طالت غفلتي عن الحضور الإلهيّ، وافتقدتُ الخشوع في الصلاة، ورضيتُ عن نفسي أكثرَ ممَّا ينبغي. وما كدتُ أفرغ من عرض أخطائي، حتَّى سمعت من خلال الثقب صوت الأب دومينيك: «وهل هذا كلّ شيء؟»

تجمَّدتُ.

أضاف الصوتُ: قيل لي إنَّ صغيرتي سيلفي تغيَّرت، لم تَعُد كما كانت. يبدو أنَّها صارت طائشةً، عصيَّة، وقحة.

اشتعل خدّايَ، وعجزتُ عن النُّطق.

قال الصوت: ابتداءً من اليوم، ينبغي أن تنتبهي إلى هذه الأمور. وسنتحدَّث فيها معًا.

منحني الأب دومينيك الغفران، وخرجت من المَعْزَل ورأسي يحترق. وهربتُ من الكنيسة دون أن أستغفر. كنتُ مصدومةً أكثر

من صدمتي ذاك اليوم في مترو الأنفاق، حين فتح رجلٌ سرواله ليريني شيئًا ورديًّا.

طيلة ثماني سنوات وأنا أركع أمام الأب دومينيك كما يركع المرء أمام الربّ: ولم يكن في الواقع سوى شيخٍ نمَّامٍ، يثرثر مع الأنسات، ويأخذ القيل والقال على محمل الجدّ. خجلت لأنّني فتحت له روحي: لقد خانني. والآن، كلَّما رأيتُ رداءَه الأسودَ في الممرّ، أحمرُّ خجلًا وأهرب.

خلال نهاية العام والعام الذي تلاه، صرت أعترف لدى قساوسة كنيسة سان سولبيس؛ وكنت أغيِّر القسّ في كلِّ مرَّة. واصلتُ الصلاة والتأمُّل، ولكنْ أثناء فترة الأعياد، لمع النّور في داخلي. كنتُ ما أزال أحبُّ ساديرناك؛ وكما في الماضي، تنزَّهتُ هناك كثيرًا. غير أنّي لم أعد أجد بهجتي في علَّيْق الأحراش وبندقها، بل صرتُ ميَّالةً إلى تذوّق حليب نبات العَنجَد، أن أعضّ تلك الثمار السامَّة، بلونِ اليمنيوم، والتي تحمل الاسم الجميل الملغَّز «ختم سليمان». فعلت أشياءَ كثيرةً محرَّمةً: أكلت التفَّاح بين وجبات الطعام، أخذت خلسةً روايات ألكسندر دوما من على الرفوف العليا للمكتبة. خضت في أحاديث مفيدة حول سرِّ الولادات، مع ابنة أحد المزارعين؛ وليلًا، في سريري، كنت أقصُّ على نفسي حكاياتٍ عجيبةً، تجعلني في حالاتٍ عجيبة. وذات مساءٍ، وأنا مستلقية في مرجٍ بَليلٍ، قابلةً القمرَ، قلتُ لنفسي إنَّ ما أفعله يُعتبر من الخطايا! ومع ذلك، ظللت مصمِّمةً كلَّ التّصميم على مواصلة الأكل والقراءة

والحديث والحلم كما يحلو لي. قلت لنفسي: «أنا لا أؤمن بالربّ!» كيف نؤمن بالربّ ونختار عمدًا معصيته؟ وظللت لوهلةٍ مذهولةً إزاء هذه الحقيقة البيِّنة: لم أكن أؤمن.

لا أبي ولا الكُتَّاب الذين كنتُ معجبةً بهم، كانوا مؤمنين؛ ولا ريب في أنَّ العالم لا يمكن أن يُفسَّرَ بدون إله، لكنَّ الإلهَ لا يُفسِّر الشَّيءَ الكثيرَ؛ وعلى أيِّ حال، لسنا نفهمُ شيئًا من ذلك. بدأت أتوافق بسهولةٍ مع وضعي الجديد، غير أنِّي لمَّا عدتُ إلى باريس، تمكَّن منِّي الفزع. لا يسع المرءَ أن يمتنع عن التَّفكير فيما يسنح له من أفكار؛ مع أنَّ أبي كان يتوعَّد فيما مضى بأن يُطلق النّار على الانهزاميِّين؛ وقبل عامٍ، طُردت طالبةٌ كبيرة من المدرسة لأنَّها، كما يُقالُ همسًا، قد فقدت الإيمان. عليَّ إذن أن أُخفيَ عاري بعنايةٍ. ليلًا، كنتُ استيقظُ متعرِّقةً من فكرة أنَّ أندريه يمكن أن ترتاب في أمري.

لحسن الحظ، لم نكن نتطرَّق البتَّة إلى أمور الجنس أو الدِّين. مسائل أخرى عديدة بدأت تشغلنا. كنَّا ندرس الثورة الفرنسيَّة؛ كنَّا معجبتيْن بكامِي ديماولان، ومدام رولان، وحتى دانتون. وكنَّا نخوض، إلى أبعد قدرٍ ممكنٍ، في مسائل العدالة والمساواة والمِلكيَّة. وهذه أمورٌ، تعدُّ معرفةُ الآنسات بها صفرًا؛ أمَّا والدانا، فأفكارهم جامدةٌ، ولم تَعُد ترضينا. والدي كان يقرأ عن طيب خاطرٍ جريدة **الحركة الفرنسيَّة**[1]. أمَّا السيِّد غالار، فكان أكثر ديمقراطيَّة، وكان في شبابه

(1) جريدة فرنسيَّة، لسانُ اليمين القوميّ المتطرِّف.

معجبًا بمارك سانييه[1]؛ لكنَّه لم يعد شابًا، وصار يبيِّن لأندريه أنَّ كلّ نزعةٍ اشتراكيَّةٍ تؤدِّي بالضرورة إلى اندحارٍ نحو القاع، وتقوُّضٍ للقيم الرّوحيَّة. لم يكن كلامه يقنعنا، لكنَّنا ننصاعُ لبعض حججه. سعينا إلى الحديث مع صديقات مالو، وهنَّ فتياتٌ كبيرات، فلا بدَّ من أنهنَّ يعرفن أكثر ممَّا نعرف. لكنهنَّ كنَّ يفكِّرن على شاكلة السيِّد غالار، ولا يحفلن بتلك الأسئلة إلَّا قليلًا. كنَّ يفضِّلن الحديث في الموسيقى والرسم والأدب؛ وبالمناسبة، كنَّ يتحدَّثن في تلك المواضيع بحماقة. وكثيرًا ما كانت مالو تطلب منَّا أن نقدِّم الشّاي، حين تستقبل ضيفاتٍ، ولكنَّها شعرت بأنَّنا لا نُكنُّ لضيفاتها من التقدير إلَّا قليلًا، فصارت تحاولُ أن تنتقمَ بأن تُبرز تفوُّقها على أندريه. وظهيرةَ يومٍ من الأيَّام، وجَّهت إيزابيل باريير التي كانت تحبُّ، حبًّا مفرطًا في المثالية، معلِّمها لآلة البيانو ـ وهو رجلٌ متزوِّجٌ وأبٌ لثلاثة أطفال ـ الحديثَ إلى الرّوايات الرومانسيَّة. فأشارت كلٌّ من مالو وابنة عمّها غوت، والأخوات غوسلين إلى تفضيلاتهنّ.

سألت إيزابيل: ماذا عنكِ يا أندريه؟

أجابت أندريه بنبرةٍ حازمة: الرّوايات الرومانسيَّة تصيبني بالملل.

قالت مالو:

ـ لا تكذبي، الجميع يعرف أنَّكِ تحفظين تريستان وإيزولت عن ظهر قلب.

---

(1) صحفيّ فرنسيّ، من روّاد الاشتراكيَّة الكاثوليكيَّة.

أضافت أنَّها لا تحبّ هذه القصَّة؛ بينما إيزابيل تحبّها. قالت حالمةً إنَّها تجد هذه الملحمة عن الحبّ الأفلاطونيّ مؤثِّرةً جدًّا. قهقهت أندريه.

قالت:

ـ حبُّ تريستان وإيزولت أفلاطونيّ! كلّا، لا أفلاطونيَّة في القصَّة.

خيَّمَ صمتٌ محرجٌ، وقالت غوت بصوتٍ جافّ:

ـ لا ينبغي للفتيات الصَّغيرات الحديث عمَّا لا يفهمنَه.

ضحكت أندريه مجدَّدًا، من دون أن تجيب.

حدَّقتُ فيها حائرةً: ماذا كانت تقصد؟ أنا لا أفهم إلَّا حبًّا واحدًا، الحبّ الذي أشعر به نحوها.

وحين دخلنا غرفتَها، قالت أندريه: «مسكينةٌ يا إيزابيل! ينبغي أن تنسى حبيبها تريستان، فهي شبه مخطوبةٍ لرجلٍ أقرع بشع».

وأضافت ساخرة: «آمل أنَّها تؤمن بالحبِّ المقدَّس من أوَّل نظرة.

ـ وما هذا؟

ـ عمَّتي لويز، والدة غوت، تقول إنَّه في اللَّحظة التي ينطق فيها العريس والعروس كلمة «نعم» المقدَّسة، يقعان في غرام بعضهما فورًا. إنَّها كما ترينَ نظريةٌ مريحةٌ بالنِّسبة إلى الأمَّهات. لا حاجة بهنّ إلى الاهتمام بمشاعر بناتهنّ: الربّ سوف يتكفَّلُ بالأمر.

قلتُ:

ـ لا أحد يصدِّق مثل هذا الكلام.

ـ غوت تصدِّقه.

صمتت أندريه.

ثمَّ استأنفَت الكلامَ:

ـ بالطبع، أمِّي لا تذهب إلى هذا الحدّ، لكنَّها تقول إنَّنا ما إن نتزوَّج حتَّى تغمُرنا النِّعم.

ألقت بنظرةٍ إلى صورة والدتها، وقالت بصوتٍ متردِّد: «عاشت أمِّي سعيدةً جدًّا مع أبي. ومع ذلك، لو لم تجبرها جدَّتي على الزَّواج منه لما فعَلَت. لقد رفضَته مرَّتيْن.

نظرتُ إلى صورة السيِّدة غالار: كان من الغريب أن أتصوَّرها بلقبِ صبيَّة.

ـ رفضته!

أضافت أندريه في نبرةٍ لا تعكس أنَّها مقتنعةٌ بكلامها:

ـ نعم. لقد بدا لها أبي متزمِّتًا جدًّا. لكنْ هو كان يحبُّها، ولم يستسلم. وخلال خطوبتهما، صارت تبادله الحبَّ.

لزمنا الصَّمتَ برهةً.

قلت: «لن يطيب للمرء العيشُ، من الصباح إلى المساء، مع شخصٍ لا يحبّه».

قالت أندريه:

ـ «لا بدَّ أنَّه أمرٌ فظيع».

ارتجف جسمها، كأنَّما أبصرَت أوركيدةً؛ اقشعرَّ جلدُ ذراعيْها.

قالت:

ـ يعلِّموننا في المدرسة ضرورةَ أن نحترمَ أجسادَنا؛ لذا، فأن نبيع أجسادنا باسم الزواج، لا يقلّ شناعةً عن أن نبيعَه خارج الزواج.

قلتُ:

ـ لسنا مجبرات على الزواج.

قالت أندريه:

ـ سأتزوَّج، لكنْ ليس قبل أن أبلغ الثانية والعشرين.

ثمَّ وضعت على الطاولة، بغتةً، كرَّاسةَ النُّصوص اللاتينيَّة.

قالت:

ـ هلَّا بدأنا العمل.

جلستُ إلى جانبها، وغُصنا في ترجمةِ معركة تراسمانيا.

وما عدنا بعدها نقدِّم الشاي إلى صديقات مالو.

لكي نجد إجابات عن الأسئلة التي تؤرِّقنا، كان لزامًا علينا أن نعتمد على أنفسنا. لم يحدث قطُّ أن خُضنا قدرًا من النقاش مماثلًا لما خضناه في ذلك العام. وعلى الرَّغم من السرّ الذي لم أبح لها به، إلَّا أنَّ علاقتنا لم تبلغ قدرًا من الحميميَّة مماثلًا لذلك الذي

بلغَته آنذاك. سُمح لنا بالذهاب معًا إلى مسرح أوديون، لمشاهدة الكلاسيكيَّات. اكتشفنا الأدب الرومانسيّ: تحمَّستُ لهوغو، بينما فضَّلت أندريه موسيه، وكلتانا كانت معجبةً بفينيي. وبدأنا نخطِّط للمستقبل. كان من المقرَّر أن أواصل دراستي بعد البكالوريا. وكذلك أندريه كانت تأمل في أن يُسمح لها بمتابعة الدّروس في جامعة السوربون. نهايةَ الفصل الدراسي، عشتُ أعظمَ فرحةٍ من طفولتي: دعتني مدام غالار، دعوةً لم أتوقَّعها، لقضاء أسبوعيْن في بيتاري، ووافقَت أمّي على ذهابي.

توقَّعتُ أن أجد أندريه تنتظرني في المحطَّة؛ وحين نزلت من القطار، فوجئت بأنَّ مدام غالار هي من كان في انتظاري. كانت ترتدي فستانًا أبيض وأسود، وقد اعتمرت قبَّعة قشٍّ سوداءَ كبيرةً مزيَّنةً بالأقحوان، وعقدت حول جيدها شريطًا أبيضَ. وضعت شفتيْها على جبهتي من غير أن تلامسها فعلًا:

ـ هل مرَّت رحلتكِ على ما يرام، يا عزيزتي سيلفي؟

ـ كانت الرِّحلة جيِّدةً جدًّا يا سيِّدتي، لكنْ أخشى أنّي أفوح برائحة الفحم!

في حضور السيِّدة غالار، ينتابني دومًا شعورٌ غامضٌ بأنَّني مذنبة؛ يدايَ كانتا متَّسختيْن: لا شكَّ في أنَّ وجهي كذلك؛ لكنَّها كانت تبدو غير منتبهةٍ للأمر. بدت مشوَّشة الذِّهن؛ ابتسمَت للموظَّف ابتسامةً آليَّةً، ثمَّ سارت شطرَ عربةٍ إنجليزيَّة رُبط إليها حصانٌ أمغَر. فكَّت الزِّمام المربوطة حول وتدٍ، وقفزتْ إلى العربة في عَجلٍ.

ـ اصعدي.

جلستُ إلى جانبها؛ وقد أرخت الزمام التي كانت تمسكها بيديْها اللابستيْن قفَّازيْن.

قالت دون أن تنظر إليَّ: «أردت أن أتحدَّث إليكِ قبل أن تلتقي أندريه».

تصلَّبتُ في مكاني. أيّ نصائح ستخصُّني بها؟ هل خمَّنت أنَّني لم أعد أؤمن؟ لمَ دعَتني إذن؟

ـ إنَّ أندريه تواجه بعض المشاكل، وينبغي أن تساعديني.

كررتُ ببلاهة:

ـ أندريه تواجه مشاكل؟

شعرتُ بالحَرَج لأنَّ السيِّدة غالار تحدَّثت إليَّ فجأةً على النّحو الذي قد تتحدَّث به إلى شخصٍ كبير؛ إنَّ في الأمر ما يدعو إلى الرِّيبة.

سحَبَت الزّمام، وفرقعت بلسانها؛ انطلق الحصان، رويدًا.

ـ ألم تكلِّمكِ أندريه قطُّ عن صديقها المقرّب برنار؟

ـ لا.

سلكت العربة طريقًا مغبَّرةً، تحفُّها أشجار السّنط. لزمت السيِّدة غالار الصَّمت.

ثمَّ أخيرًا نطقت:

ـ والد برنار يملك الضيعة المحاذية لضيعة أمّي. وهو ينحدر من إحدى تلك الأسر الباسكية التي قصدت الأرجنتين طالبةً الثروةَ: هناك يعيش معظم الوقت، صحبة زوجته وبقيّة أطفاله. ولكنَّ برنار كان عليلًا، ولم يستطع تحمُّل المناخ، لذا أمضى هنا كلّ طفولته، رفقة عمَّةٍ مسنَّة، ومربِّينَ.

أدارت السيِّدة غالار رأسها نحوي:

ـ أنت تعرفين أنَّ أندريه، بعد الحادث الذي أصابها، قضت سنةً في بيتاري، راقدةً على لوح؛ وكان برنار يأتي كلّ يومٍ ليلعب معها؛ كانت وحيدةً، كانت تعاني، وكانت تشعر بالملل، وفي سنِّها ذاك، لم يكن الأمر ذا بال.

قالت السيِّدة غالار عبارتها الأخيرة بنبرة أسفٍ أربكتني.

قلت:

ـ «أندريه لم تخبرني بشيء».

كنت أحسُّ بغصّةٍ في حلقي، ووددتُ لو أقفز من العربة، وأهرب، مثلما هربتُ ذات يومٍ من الاعتراف والأب دومينيك.

ظلّا يلتقيان كلّ صيفٍ، ويركبان الخيلَ معًا. كانا ما يزالان طفليْن. لكنَّهما نمَيا.

بحثت السيِّدة غالار عن عينيَّ. كان في نظرتها شيءٌ من توسُّل:

ـ «لا مجال بالمطلق لأن يتزوَّج برنار وأندريه، يا سيلفي؛ والد برنار يعارض فكرة الزواج، كما نعارضها نحن، لذا منعتُ أندريه من رؤيته مرَّةً أخرى».

تمتمتُ كما اتّفق:

ـ فهمت.

قالت السيِّدة غالار:

ـ «لم تستسغ أندريه الأمر».

ومجدَّدًا، رمتني بنظرةٍ مرتابةٍ ومتوسِّلة: «أنا أعتمد عليكِ كثيرًا».

سألتها:

ـ «ماذا بوسعي أن أفعل؟»

كانت الكلمات تخرج من فمي، لكنَّني لم أكن أرى لها معنًى، ولا كنتُ أفهم تلك التي تلج في أذنيَّ. رأسي مليءٌ صخبًا وظلمات؟

أضافت مدام غالار: «اصرفي اهتمامها عنه، تحدَّثي معها في المواضيع التي تثير اهتمامها. الأشياء التي تهمُّها. ثمَّ، إن سنحت لك الفرصةُ، عقِّليها. أخشى عليها المرضَ. وحاليًّا، أنا لا أستطيع أن أقول لها شيئًا».

من البيِّن أنَّها قلقةٌ وتعيسة، لكنَّ قلقَها وتعاستها لم يؤثِّرا فيَّ؛ بل بالعكس، في تلك اللَّحظة، كرهتُها.

همستُ بطرف شفتيَّ: سأحاول.

واصل الحصانُ السَّير خببًا على طول شارعٍ تحفّه أشجار السنديان الأحمر، ثمَّ توقَّف أمام قصرٍ كبيرٍ، تغطّي جدرانه داليةٌ من صنف الكرم العقيم؛ وقد سبق لي أن رأيت صورة هذا المنزل

على مدفأة أندريه. عرفت الآنَ لماذا تحبُّ بيتاري وركوبَ الخيل؛ وأدركت ما كانت تفكّر فيه حين كانت تغتمُّ نظرتُها.

نزلت أندريه مبتسمةً درجات العتبة: «مرحبا!»

كانت ترتدي فستانًا أبيض، وقلادةً خضراء، وشعرها المقصوص يتلألأ كتاجٍ. كانت تبدو صبيَّةً ناضجة. وفجأةً، قلت لنفسي إنَّها جميلةٌ جدًّا. وكانت تلك فكرةً غريبةً منكرة، لأنَّنا لم نكن نولي أيّ أهمّيَّةٍ للجمال الخارجيّ.

قالت مدام غالار:

ـ أظنُّ أنَّ سيلفي تريد الاهتمام بزينتها قليلًا؛ ثمَّ تنزلان لتناول العشاء.

تبعتُ أندريه عبر الدّهليز الذي كان يفوح برائحة الكريم ـ كراميل والشمع الطازج ورطوبةِ العلّيّة. كان يتناهى إلينا صوتُ هديل يماماتٍ، وشخصٌ ما يعزف البيانو. ارتقينا الدرج ودفعت أندريه بابًا.

قالت:

ـ «لقد أنزلَتكِ أمّي في غرفتي».

كان ثمَّة سريرٌ كبيرٌ بستائرَ وأعمدةٍ مفتولة. وفي الطرف الآخر من الغرفة أريكةٌ ضيّقة. منذ ساعةٍ فقط، كنت لأطير فرحًا لو علمت أنَّني سأشارك أندريه غرفتها! لكنَّني الآن أدخل بصدرٍ حرج: إنَّ السيِّدة غالار تستغلّني. تتوسَّل بي لكي تنال الصَّفحَ؟ أو لتلهيَ أندريه؟ أو لتراقبها؟ ما الذي كانت تخشاه بالضبط؟

دنت أندريه من النافذة، وقالت بلامبالاة: «حين يصفو الطقس، نستطيع رؤية جبال البيرينيه».

كان المساء يرخي سدولَه، ولم يكن الطقس صافيًا. غسلتُ وجهي، ومشَّطتُ شعري، وأنا أحدّثُها عن سفَري في فتورٍ: إنَّها المرَّة الأولى التي أستقلُّ فيها القطارَ بمفردي؛ هي إذن مغامرة، لكنَّني لم أجد ما أقولُه.

قالت أندريه:

ـ «ينبغي أن تقصّي شعرك».

قلت:

ـ «أمِّي لا تريد ذلك».

ترى أمِّي أنَّ الشعرَ المقصوص يوحي بصورة سيِّئة عن الفتاة. لذا، أعقد شعري في شكل كعكةٍ متجهِّمة عند رقبتي.

قالت أندريه:

ـ «لننزل، سأطلعُك على المكتبة».

كان عزف البيانو ما يزال متواصلًا، بل أُشفِع الآنَ بغناء أطفالٍ. المنزل ضاجّ: أصوات أطباقٍ تتناثر، خطوات أقدامٍ. دخلت المكتبة: جميع أعدادِ «**مجلَّة العالَمَين**»، ابتداءً من العدد الأوَّل؛ أعمال لوي فويُّو، وأعمال مونتالمبر، ومواعظ لاكورديير، وخُطَبُ كونت مون، والأعمال الكاملة لجوزيف ميستر؛ وعلى المناضد،

صورٌ لرجالٍ بأصداغ كثيفة الشَّعر، ومسنّينَ ملتحين؛ إنَّهم أسلاف أندريه: جميعهم كانوا كاثوليكيّين متشدِّدين.

وإن كانوا موتى، إلَّا أنَّنا نشعر بأنَّهم في بيتهم، في مكانهم المناسب؛ أمَّا أندريه، فتبدو غريبةً وسط هؤلاء الرِّجال المتزمِّتين: صغيرةٌ جدًّا، وهشَّةٌ جدًّا، وقبل ذلك كلّه، حيَّةٌ جدًّا.

رنَّ جرسٌ، فقصدنا غرفةَ الطَّعام. كم كانوا كُثرًا! كنتُ أعرفهم جميعًا، ما عدا الجدَّة: تحت عصابة رأسها البيضاء، وجهُ جدَّةٍ كلاسيكيّ، ولم أستطع أن أكوِّن عنها أيّ فكرة. الأخ الأكبر كان يرتدي عباءة راهبٍ، لقد التحق لتوِّه بالمدرسة اللَّاهوتيَّة؛ وكان يواصل مع مالو والسيِّد غالار نقاشًا، يبدو مزمنًا، في شأن حقّ المرأة في التصويت؛ أجل، من العار أن يكون لأمّ، وربَّةِ بيتٍ من الحقوق أقلّ ممَّا لدى عاملٍ سكّير؛ ولكنَّ مدام غالار تحتجُّ بأنَّ، بين العمَّال، تكون النِّساءُ أكثر شيوعيَّةً من الرِّجال. وفي نهاية المطاف، إن مُرِّرَ القانون فإنَّه سيخدم أعداءَ الكنيسة.

لزمَت أندريه الصَّمت. في الطَّرف الآخر من الطاولة، كانت التّوأمتان تقصفان بعضهما بعضًا بكُراتٍ من خبز؛ وقد تركتهما السيِّدة غالار يفعلان ما يحلو لهما. ولأوَّل مرَّة، أقول لنفسي إنَّ هذه الابتسامة تخفي فخًا. لقد كنت في كثير من الأحيان أغبط أندريه على استقلاليَّتها؛ ثمَّ هي ذي فجأةً، تبدو لي أقلّ حرِّيَّةً منِّي. إنّها تجرّ خلفها هذا الماضي. يحوطها هذا المنزلُ الكبير، وهذه العائلة الواسعة: إنَّها في سجنٍ، مخارجُه تحت حراسةٍ مشدّدة.

قالت مالو بدون أريحيَّة:

ـ وإذن؟ ما رأيك فينا؟

ـ أنا؟ لا شيء. لماذا؟

ـ لقد جُلتِ بنظرتِك محيطَ المائدة، فلا بدَّ أنَّك كوَّنتِ فكرةً.

قلتُ:

ـ لم يخطر ببالي سوى أنَّكم كُثر، وهذا كلّ شيء.

وقلت لنفسي إنَّني ينبغي أن أتعلَّم التحكُّم في ملامح وجهي.

وقالت السيِّدة غالار، وهي تغادر المائدة: «يجب أن تُري سيلفي الحديقةَ.

أجابتها أندريه:

ـ «نعم».

ـ ارتدِيا معطفيْن، إنَّ اللَّيلَ بارد.

تناولت أندريه من الدّهليز معطفيْن من نسيج اللودن. وكانت اليمامات قد هجعت. خرجنا من الباب الخلفيّ المطلّ على مقرَّات الخدم. بين المخزن ومَرْكَم الحطب، كان كلبٌ من الفصيلة الذّئبيَّة يسحب سلسلته ويَهِرُّ.

اقتربت أندريه من وجاره، قالت: «تعالَي يا عزيزتي ميرزا، سآخذكِ في نزهة».

فكَّت وثاق الحيوان، فأخذ يقفز عليها في فرحٍ، وركض أمامنا.

سألتني أندريه: هل تعتقدين أنَّ للحيوانات أرواحًا؟

قلتُ:

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ لا أعرف.

ـ إن تكن تملك أرواحًا، فإنَّها تعيسةٌ مثل البشر. وإنْ لم تكن تملك روحًا، فهذا يعني أنَّها لا تعرف أنَّها تعيسةٌ. أسوأ من التعاسة ألَّا نعرف أنَّنا تعساء!

لم أحر جوابًا. لطالما انتظرتُ هذا المساء؛ لطالما ترقَّبتُ أن أدخل إلى قلب حياة أندريه. فلمَّا تمَّ لي الأمرُ، ألفيتُها بعيدةً جدًّا؛ مُذ صار لسرِّها اسمٌ، لم تعُد أندريه هي أندريه. واصلنا في صمتٍ سيرنا عبر أزقَّةٍ سيِّئة الصيانة، نما فيها نبات الخبّازى والقنطور. وكانت الحديقة مليئةً بالأشجار الجميلة والزهور.

قالت أندريه وهي تشير إلى مقعدٍ تحت شجرة أرز: لنجلس هناك.

أخرجَت من حقيبتها علبة غولواز:

«هل أُشعل لك سيجارةً منها؟»

قلت:

ـ كلَّا. منذ متى وأنتِ تدخِّنين؟

ـ أمِّي تحرِّمُ عليَّ التَّدخين، لكنْ حين يبدأ العصيان...

أشعلت سيجارة، مرسلةً الدخان إلى عينيْها.

استجمعتُ شجاعتي: أندريه، ما الخطب؟ أخبريني..

ـ أظنُّ أنَّ أمّي قد أخبرتك. لقد حرصتْ على استقبالك بنفسها...

ـ لقد حدَّثتني عن صديقك برنار. لم تذكريه أنتِ لي قطُّ...

قالت أندريه:

ـ لم أكن أستطع الحديث عن برنار.

بسطت يدها اليسرى، ثمَّ ثنتها في ضربٍ من التشنُّج.

أضافت: والآن، صارت الحكاية مكشوفةً على الملأ.

قلت بحدَّة:

ـ لنُغلق هذا الحديث إن لم تكن لديكِ رغبةٌ فيه.

نظرت إليَّ أندريه: «بالنِّسبة إليكِ أنتِ، الأمر مختلف، أريدكِ أن تعرفي».

ثمَّ سحبت نفسًا من سيجارتها بعنايةٍ، وقالت:

ـ بماذا أخبرَتك أمّي؟

ـ حكت لي كيف أصبحتُما أصدقاء، أنتِ وبرنار، وأخبرتني بأنَّها منعتكما من أن تلتقيا مرَّةً أخرى.

قالت أندريه:

ـ لقد منعتني أنا.

رمت بسيجارتها، وسحقتها بضربةٍ من كعبها:

ـ مساء وصولي، تنزَّهتُ مع برنار، بعد العشاء. وعدتُ إلى البيت متأخِّرةً، وكانت أمِّي تنتظرني، وعلى الفوْر، انتبهتُ إلى أنَّ ملامح وجهها كانت غريبة. سألتني أسئلةً كثيرة.

هزَّت أندريه كتفيْها، وقالت بصوتٍ مهتاج: «سألتني عمَّا إذا كنَّا قد تبادلنا القُبَل!» بالطبع كنَّا نقبِّل بعضنا بعضًا، فنحن حبيبان.

خفضتُ رأسي. أندريه تعيسة، وتلك خاطرةٌ لا أطيقُها. الفكرة كانت لا تُطاق بالنِّسبة إليَّ. ومع ذلك، ما يزال شقاؤها مجهولًا عندي. فأنا لا معرفة عندي ولا تجربة بالحبّ الذي يشملُ القُبلَ.

قالت أندريه:

ـ «قالت لي أمِّي أشياءَ فظيعة».

شدَّت حول جسمها معطف اللودين.

ـ ولكنْ لماذا؟

قالت أندريه بهيئةٍ متزمِّتة:

ـ والداه ثريَّان، أغنى منَّا بكثير، لكنَّهما ليسا من بيئتنا، على الإطلاق. ويبدو أنَّهم هناك، في ريو، يحيون حياةً متحلِّلةً من كلّ قيد. (وأضافت في همس): ووالدة برنار يهوديَّة.

نظرتُ إلى ميرزا، كانت ساكنةً وسط العشب، وقد رفعت أذنَيْها منتصبتيْن إلى النجوم؛ لم أكن بأقدَر منها على فهم ما تعنيه أندريه.

سألتُ:

ـ ثمَّ؟

ـ تحدَّثت أمّي مع والد برنار، فوافقَها الرّأيَ تمامًا: أنا لست خيارًا جيّدًا بالنّسبة إليهم. قرَّر أن يصطحب برنار في عطلةٍ إلى بياريتز، ومنها سينطلقان إلى الأرجنتين. فقد صار برنار الآن بصحَّةٍ جيّدة.

ـ هل سافر؟

أجابت أندريه:

ـ نعم؛ منعتني أمّي من توديعه، لكنَّني عصيتُها. لن تتصوَّري: لا شيء أفظع من أن يعانيَ من تحبّهُ بسببكَ. (ارتعش صوتها): لقد بكى؛ آه، كم بكى!

سألتها:

ـ كم عمره؟ كيف هو؟

ـ إنَّه في الخامسة عشرة، مثلي أنا، لكنَّه ساذجٌ، لا خبرة لديْه بالحياة. لم يهتمّ به أحدٌ قطُّ، لم يكن له أحدٌ غيري.

بحثَتْ في حقيبتها، ثمَّ أضافت:

ـ عندي صورةٌ صغيرةٌ له.

تأمَّلتُ الصبيَّ المجهول الذي يحبُّ أندريه؛ الذي يقبّلها؛ الذي بكى كثيرًا: عينان واسعتان وصافيتان، وجفنان منتفخان، وشعرٌ داكنٌ قصَّه على طريقة كاراكلا[1]: كان يشبه القدِّيس الشّهيد تارسيسيوس.

---

(1) نسبة إلى الأمبراطور الرومانيّ كاراكلا، وكانت أشكال الحلاقة في فرنسا قديمًا تسمَّى بمثل هذه المسمَّيات نسبةً إلى أشكال تماثيل الأباطرة الرّومان (كاراكلا، تيتوس...)

قالت أندريه:

ـ «ترينَ عينَيْه وخدَّيْه؛ عينا وخدّا فتًى بحقّ. لكنْ انظُري إلى فمه، كم يبدو حزينًا: كأنَّه يعتذر عن وجوده في هذه الدّنيا».

أرخت رأسها على مسند المقعد، وحدَّقَت في السَّماء:

ـ أحيانًا، أقول في نفسي: ليتَه مات. على الأقلّ، سأكون وحدي من يعاني. (تشنَّجت يد أندريه مرَّةً أخرى). لا أطيق فكرة أنَّه الآن يبكي.

قلتُ:

ـ سوف تلتقيان مرَّةً أخرى! بما أنَّكما تحبَّان بعضكما بعضًا، فلا بدَّ أن تلتقيا! ستبلغان سنَّ الرشد.

قالت أندريه يائسة:

ـ بعد ستّ سنوات؛ إنَّها سنواتٌ طويلة جدًّا. قياسًا إلى عمرنا، ستُّ سنواتٍ كثيرٌ. أعلم أنَّني لن أراه مجدَّدًا. أبدًا!

أبدًا! كانت تلك المرَّة الأولى التي تهوي فيها هذه الكلمة بكلّ ثقلها على قلبي. ردَّدتُها في نفسي، تحت السماء اللَّانهائيَّة، وأحسستُ بالرَّغبة في الصراخ.

قالت أندريه:

ـ «حين عدت، بعد أن ودَّعته، صعدت إلى سطح المنزل؛ كنت أريد أن أقفز منه».

ـ أردتِ أن تقتلي نفسك؟

ـ بقيت هناك ساعتيْن، ساعتيْن من التردُّد. قلت لنفسي إنَّني لا آبه أن أكون ملعونة: إن لم يكن الربُّ طيِّبًا، فلا رغبة بي في فردوسه. (هزَّت أندريه كتفيْها): كنت خائفة! وليس الموت ما أخافني، على العكس، أنا أتمنَّى لو كنت ميِّتة! إنَّما خفت من الجحيم. إذا ذهبت إلى الجحيم، فسيكون الأمر قد قُضي. لن أرى برنار بعدها أبدًا.

قلتُ:

ـ سوف ترَينه مرَّةً أخرى في هذا العالم!

هزَّت أندريه رأسها:

ـ لقد انتهى الأمر.

وقفَت فجأةً:

ـ لنعُد إلى المنزل. أشعر بالبرد.

عبرنا العشب في صمت. قيَّدت أندريه ميرزا إلى السلسلة، وصعدنا إلى غرفتنا. استلقيت على السّرير، وهي على الأريكة. أطفأَت مصباحها، وقالت:

ـ «لم أُخبر أمّي بأنَّني التقيتُ برنار مرَّةً أخرى. لا أريد أن أسمع منها مجدَّدًا مثل ذاك الكلام الذي قالته لي».

تردَّدتُ. أنا لا أحبّ مدام غالار، لكنَّني أدين بالحقيقة إلى أندريه. قلت:

ـ «إنَّها قلقةٌ عليكِ».

قالت أندريه:

ـ «أجل، أظنُّها قلقة».

* * *

في الأيّام التالية، لم تثر أندريه اسمَ برنار، ولم أجرؤ على أن أبادر لذكره. في الصباح، كانت تعزف على الكمان طويلًا، وتكاد معزوفاتها تكون دائمًا مقطوعاتٍ حزينة. ثمَّ نخرج لنتنزَّه في الشمس. كان مناخ هذا البلد أشدَّ جفافًا من بلدي، وقد حفظتُ، على طول المسارات المتربة، رائحةَ شجرة التين الحرّيف. وفي الغابة، كنت أعرف طعم الصنوبر، إذ كنت امتصّ الدموع الصمغيَّة المجمَّدة على جذوعه. وعند العودة من نزهاتنا، كانت أندريه تدخل إلى الإسطبل، فتربّت على حصانها الصغير، أليزون، لكنَّها ما عادت تركبه.

صارت فترات ما بعد الظهر، أقلّ هدوءًا. قرَّرَت السيِّدة غالار تزويج مالو؛ ولكيْ تموِّه على زيارات الفتيان، المجهولين إلى حدّ ما، فقد أشرَعَت أبواب منزلها «وفق الأصول» أمام شباب المناطق المحيطة. كانوا يلعبون الكروكيت والتنس، ويرقصون في الحديقة، ويتحدَّثون عن المطر والطقس الصّحو وهم يتناولون الكعك. ويوم نزلت مالو من غرفتها، مرتديةً فستانًا من حرير الشانتونغ، وقد غسلت شعرها حديثًا، وجعَّدته بمكواة الشّعر، لكزتني أندريه بكوعها قائلةً:

ـ «إنَّها ترتدي لباس المقابلة.»

أمضت مالو فترة ما بعد الظَّهيرة بجوار فتًى من المدرسة العسكريَّة، شديد القبح، لا يلعب التنس، ولا يرقص، ولا يتحدَّث؛ فقط من حين إلى آخر يلتقط كُراتنا. وبعد انصرافه، أغلقت السّيدةُ غالار على نفسِها وابنتِها الكبرى بابَ المكتبة. وكانت النافذة مفتوحة، فسمعنا عبرها صوتَ مالو:

ـ «لا يا ماما، ليس هذا: إنَّه مملٌّ جدًّا!»

قالت أندريه:

ـ «مسكينةٌ يا مالو! كلّ من يقدَّمُ إليها من الرِّجال أغبياءُ جدًّا وقبيحون جدًّا».

جلسَتُ على الأرجوحة. كان بجوار المخزن ضربٌ من صالةٍ رياضيَّة في الهواء الطّلق. وكثيرًا ما كانت أندريه تتمرَّنُ هناك على الأرجوحة أو العارضة، وهي ماهرةٌ جدًّا فيهما. أمسكتْ بالحبلَيْن، وقالت: «ادفعيني».

ولمَّا كسبَت شيئًا من الزَّخم، وقفتْ وقامتْ بحركةٍ من عرقوبها، فطارت الأرجوحة من فورها فوق قمم الشجرة.

صرختُ:

ـ ليس لهذه الدَّرجة!

لم تجب أندريه؛ طارت؛ ظلت تنزل وتحلّق، تنزل لتحلّق أعلى فأعلى. وكانت التوأمتان تلعبان بنشارة الخشب في المركم، بجوار وجار الكلب، فرفعتا رأسيْهما، وعلى وجهيْهما ملامح الاهتمام. ومن بعيد،

يتناهى صوتُ ضرباتٍ مكتومةٍ من مضاربَ تنس. كانت أندريه تلامس أوراق أشجار القيقب، وبدأ يداخلني الفزع: أسمعُ معاليقَ الصّلب تئنُّ:

ـ أندريه!

كان المنزل بأكمله هادئًا. عبر منوَر القبو، تصعد من المطبخ ضجَّةٌ مبهمة. وبالكاد ترتجف نباتات الحوذان وقمر العامِ التي تحفُّ الجدار. وأنا خائفةٌ لا أجرؤ على التشبُّث بخشبة الأرجوحة، أو التوسُّل إليها. أقول لنفسي إنَّ الأرجوحة توشك تلفُّ على نفسها، وإنَّ أندريه ستصاب بالدوار، وإنَّها سترخي الحبليْن: مجرَّد رؤيتها تنوس متأرجحةً من السَّماء إلى السَّماء، مثل بندولٍ مجنون، يصيبني بالغثيان. لمَ طال بها التأرجح؟ حين تمرُّ بجانبي، مستقيمةً في ثوبها الأبيض، تبدو عيناها ثابتتيْن، وشفتاها مزمومتيْن. ربَّما حدث في رأسها صدعٌ، وما عادت قادرةً على التوقُّف! رنَّ جرسُ العشاء، وانطلقت ميرزا إلى النّباح. وما تزال أندريه تحلّق بين الأشجار.

قلت في نفسي: «سوف تقتل نفسها».

«أندريه!» صاح صوتٌ آخر. ثمَّ برزت مدام غالار، مسودَّة الوجه من الغضب:

ـ «انزلي على الفور! هذا أمر. انزلي!»

رفَّ جفنا أندريه، ثمَّ نظرت إلى الأرض، قرفصت على الأرجوحة، وفرملت بقدميْها معًا، في عنفٍ، حتَّى إنَّها وقعت ممدَّدةً على العشب.

ـ هل آذيتِ نفسك؟

ـ لا.

ضحكَت، وانتهى بها الضحكُ إلى الفواق، وظلَّت ممدَّدةً على الأرض وعيناها مغلقتان.

قالت مدام غالار بنبرةٍ قاسية:

ـ «بالطبع آذيتِ نفسك! نصف ساعة على هذه الأرجوحة! كم عمركِ؟»

فتحت أندريه عينيْها:

ـ السماء تدور.

ـ عليكِ أن تحضِّري كعكةً نتناولها غدًا بعد العصر.

قالت أندريه وهي تقوم:

ـ سأفعل بعد العشاء.

وضعت يدها على كتفي: أنا أترنَّح.

ابتعدت مدام غالار، وأخذت في طريقها التوأمتيْن. رفعت أندريه رأسها إلى قمم الأشجار.

قالت:

ـ ما أطيبَ الوجود هناك!

قلت:

ـ لقد أخفتِني.

ـ أوه! الأرجوحة متينةٌ، لم يسبق أن وقع حادث.

كلَّا، لم تفكّر في قتل نفسها. تلك مسألةٌ سُوّيَت وانتهت؛ لكنَّني كلَّما تذكَّرت عينيْها الثابتتيْن وشفتيْها المزمومتيْن، داخلني الفزعُ.

بعد العشاء، ولمَّا فرغ المطبخُ من كلِّ حضورٍ، ذهبنا أنا وأندريه إلى هناك؛ كان المطبخ فسيحًا، يحتلُّ نصف الطابق السفليّ؛ نهارًا، ترى منه، عبر المنور الأرضيّ، طيور حبش، وكلابًا، وأقدام بشر؛ أمَّا في هذه الساعة، فلا شيء يتحرَّك في الخارج، فقط ميرزا عند طرف سلسلتها تهرُّ هريرًا واهنًا. النار تضطرم في موقد الحديد؛ ولا ضجيج غير هَسهَستها. وبينما أندريه تكسر البيض، وتحدِّد مقادير السّكَّر، والخميرة، رحتُ أنا أتفقَّدُ الجدران، أفتح الأدراج الجانبيَّة. نحاسٌ برَّاقٌ: أطقُم مراجل، قدورٌ، مغارفُ، أحواضٌ، طشوتٌ كانت فيما مضى تستخدم في تسخين شراشف الأسلاف الملتحين. وفي خزانة الأطباق، أُعجبت بطقم أطباق مطليَّة بالمينا، ومزيَّنة بألوانٍ طفوليَّة. من حديد السّبك، من الفخار، من الخزف، من الألومنيوم، من القصدير.. قدورٌ، ومقَالٍ، وقدورٌ هولنديّة، وأواني نار، ومراجلُ، وأطباقٌ، وأواني حساء، ومصافٍ، وفرّامات، وطواحين، وقوالب طبخ، وهواوين! أيُّ تشكيلةٍ متنوّعةٍ هي، من الأطباق، والصحون، والكؤوس، والأكواب، والفناجين، وأطباق الفناجين، والأباريق، والأحقاق، والملاعق، والشوكات، والسكاكين، أَ لِكلِّ آنيةٍ منها، حقًّا، لكلِّ ملعقةٍ، ولكلِّ مغرفةٍ، ولكلِّ شوكةٍ، ولكلِّ سكّينٍ استخدامٌ خاصّ؟ ألَنا إذن كثيرٌ من

الاحتياجات التي ينبغي تلبيتُها؟ لكي يصعد هذا العالم السرّيُّ إلى سطح الأرض، يحتاجُ أعيادًا ضخمةً ودقيقةً، لم نشهد لها، على حدّ علمي، مثيلًا في أيّ مكانٍ.

سألتُ أندريه:

ـ هل تستخدمون كل هذا؟

قالت:

ـ «بدرجةٍ ما، ثمَّة الكثير من التقاليد».

وضعَت في الفرن قالب الكعكة القاتم:

ـ «أنت لم تَرَي شيئًا، لنقُم بجولةٍ في القبو».

عبرنا أوَّلًا المَلْبَنَ: الجرار، والأوعية الزجاجيَّة، والأباريج الخشبيَّة المصقولة، وأكوام الزبدة، والجبن الأبيض السّلس تحت ثوب الموسلين الأبيض: هذا العريُ النَّظيفُ، وهذه الرَّائحة الشَّبيهة برائحة الرُّضَّع أجفَلاني. فضَّلتُ الأقبية المليئة بالقناني المغبَّرة والبراميل الصغيرة المليئة بالكحول. لكنْ، أرهقتني مع ذلك وفرة لحم الخنزير المقدَّد، والنقانق وعناقيد البصل والبطاطا. فكَّرت وأنا أنظر إلى أندريه: «لهذا السَّبب تحتاج إلى التحليق بين الأشجار».

ـ هل تحبِّين الكرز مع ماء الحياة[1]؟

ـ لم يسبق لي أن أكلت منه.

(1) نوع من العرق، يُستقطر من بعض الفواكه كالتّين والبرقوق.

على أحد الرفوف، مئات البرطمانات مليئةٌ بالمربَّى: وعلى كلِّ برطمان منها ملصقٌ دُوِّنَ عليه تاريخُه واسم الفاكهة. كان ثمَّة أيضًا جرارٌ من الفاكهة محفوظةٌ في الشراب والكحول. تناولَت أندريه جرَّةً من الكرز وأخذتها إلى المطبخ. وضعتها على المائدة، وبمغرفةٍ من خشبٍ، ملأت كوبيْن. تذوّقَت السائلَ الورديَّ من على المغرفة.

قالت:

ـ «كانت جدَّتي ساقيةً سخيَّةً. ما أيسر أن يثملَ المرء بهذا!»

انقضضتُ من الذّيل على ثمرةٍ بهت لونها، وذبلت، وتجعَّدت: لم يعد طعمُها طعمَ الكرز، ولكنّ حرارة الكحول طابت لي.

سألتها:

ـ «هل سبق أن سكرتِ؟»

أضاء وجه أندريه:

ـ «ذات مرَّة، مع برنار. شربنا زجاجة شارتروز. في البداية، كان الأمر ممتعًا: دوارٌ ألذَّ من ذاك الذي يصيبك حين تنزل الأرجوحة. بعد ذلك، شعرنا بألمٍ في قلبينا».

النار كانت تَؤجُّ، وبدأنا نشمّ رائحة حلوى طريَّة. ولمَّا كانت أندريه قد ذكرت اسم برنار بنفسها، فقد تجرَّأتُ على سؤالها:

ـ هل أصبحتما صديقيْن بعد الحادث؟ كان يزورك كثيرًا؟

ـ نعم، صحيح. وكنَّا نلعب الدامة، والدومينو، والورق. آنذاك، كان برنار غضوبًا، كثيرَ الغيظ. ذات مرَّةٍ، اتَّهمته بالغش، فركلني: مباشرةً في فخذي الأيمن، لم يفعل ذلك عن قصد. أغمي عليَّ من الألم، وعندما استعدتُ وعيي، كان قد طلب المساعدة، وكانت ضماداتي تُغيَّرُ، وهو جالسٌ إلى جانب سريري ينتحب.

هامت نظرةُ أندريه في البعيد:

ـ لم أرَ قَطُّ صبيًّا يبكي. أخي وأبناء عمومتي أفظاظ. وحين انصرف الجميع، وتركونا بمفردنا، قبَّلنا بعضنا بعضًا...

ملأت أندريه كوبَينا مجدَّدًا؛ الرائحة تزداد كثافةً؛ واضحٌ أنَّ الكعكة في الفرن تتَّخذ لونَها المذهَّب. ولم تَعُد ميرزا تهرُّ، لا بدَّ أنَّها قد هجعت، الجميع نوّامٌ.

قالت أندريه:

ـ «وبدأ يحبُّني».

حوَّلت رأسها نحوي، وأضافت:

ـ «لا أستطيع أن أشرح لكِ: يا له من تغيير في حياتي! لطالما ظننتُ أن لا أحد يمكنه أن يحبّني».

انتفضتُ:

ـ تظنّين ذلك؟

ـ نعم.

صحت بلا تحفُّظٍ:

ـ لِمَ؟

هزَّت كتفيْها:

ـ أرى نفسي قبيحةً، وخرقاء، وغير ذات شأن؛ ثمَّ صحيح أن لا أحد يهتمُّ لأمري.

قلتُ:

ـ وأمّك؟

ـ أوه! من واجب الأمّ أن تحبّ أطفالها، وهذا الحبُّ لا يُحسَبُ. أمّي تحبُّنا جميعًا، ونحن كُثر!

كان في صوتها شيءٌ من اشمئزاز. هل كانت تغار من إخوتها وأخواتها؟ هل عانت من ذلك البرود الذي أشعر به في السيِّدة غالار؟ لم يخطر ببالي قطّ إمكان أن يكون حبّها لأمّها حبًّا تعيسًا.

أسندَت يديْها إلى خشب الطّاولة البرَّاق.

وقالت بلهجةٍ قاسية:

ـ «وحده برنار، في العالم بأكمله، من أحبَّني لنفسي، خالصةً كما أنا، ولأنّني أنا».

سألتها:

ـ وأنا؟

لقد أفلتت الكلمات منّي؛ ثُرتُ للحيْفِ الذي مسَّني.

تأمَّلتني أندريه في دهشةٍ:

ـ أنتِ؟

ـ ألم أحببك كما أنتِ؟

أجابت أندريه بصوتٍ غير واثق:

ـ طبعًا.

تشجَّعتُ بتأثير من حرارة الكحول وشعوري بالسَّخط. أردت أن أبوح لأندريه بتلك الأمور التي لا تُقال إلَّا في الكتب، قلتُ:

ـ لم أخبرك قطّ بالأمر؛ ولكنَّني منذ أوَّل يوم عرفتُك فيه، صرتِ بالنِّسبة إليَّ كلَّ شيءٍ. حتّى إنَّني قرَّرت: إن مُتِّ، فسوف أموت فورًا.

كنت أتكلَّمُ في الماضي، وأحاول استعمال نبرةٍ متقطِّعة. واصلت أندريه النظر إليَّ حائرةً:

ـ ظننتُك لا تهتمّين إلَّا لكتبك ودروسك.

ـ بل كنتِ أنتِ دائمًا في مقدِّمة اهتماماتي. كنتُ لأتخلَّى عن كلِّ شيءٍ حفاظًا عليكِ.

لزمَت الصَّمتَ، فسألتها:

ـ ألم تنتبهي للأمر؟

ـ عندما أعطيتني تلك الحقيبة، بمناسبة عيد ميلادي، فكَّرت في أنَّكِ تكنِّين لي مشاعر صادقة.

أجبتها بنبرةٍ حزينة:

ـ بل أكثر من ذلك بكثير!

بدت متأثّرة. لِمَ لم أتمكّن من جعلها تشعر بحبّي؟ كانت تبدو لي رفيعةً جدًّا، حتّى إنّني حسبتُها راضيةً كلّ الرّضا. رغبتُ في أن أبكي عليها، وعلى نفسي.

قالت أندريه:

ـ عجيب! سنواتٍ ونحن لا ننفصل، وها أنا اليوم أدرك أنّني لا أعرفكِ حقّ المعرفة!

أضافت في حسرة:

ـ لشدَّ ما أتسرَّع في حكمي على الناس!

لم أرغب في تركها تحاكم نفسَها، فسارعتُ إلى القول:

ـ أنا أيضًا لم أعرفكِ حقّ المعرفة! كنت أحسبُك فخورةً بوضعكِ كما هو، وكنت أغبطكِ.

أجابتني:

ـ لست فخورة.

ثمَّ قامت وسارت باتّجاه المطبخ، وقالت وهي تفتح الفرن:

ـ لقد نضجت الكعكة.

أطفأت النارَ، ووضعت الكعكة في مخزن الطعام، ثمَّ صعدنا إلى غرفتنا. وبينما نخلع ملابسنا، سألتني:

ـ هل ستقومين بالمناولة صباح الغد؟

أجبتها: لا.

ـ سنذهب معًا إذن إلى القدَّاس الكبير. أنا أيضًا لا أقوم بالمناولة. (أضافت بلامبالاة) أنا الآن في وضعيّة مذنبة. لم أخبر أمِّي بعد بأنَّني عصيتها. والأسوأ أنَّني لم أتب عن المعصية.

انزلقتُ تحت أغطيتي، بين الأعمدة:

ـ لم تكوني تستطيعين أن تتركي برنار يرحل من غير أن تلتقيه مرَّةً أخرى.

قالت أندريه:

ـ لم أكن أستطيع! كان سيحسبني غير مبالية، وكان سيزداد يأسًا على يأس. (كرَّرتْ مرَّةً أخرى) لم أكن أستطيع!

ـ أحسنتِ إذن إذ عصيتِ.

قالت أندريه:

ـ أوه! أحيانًا، مهما فعل المرء، يكون مخطئًا.

رقدَت، لكنَّها تركت المصباح الأزرق عند منضدة سريرها موقدًا.

قالت:

ـ هنا واحدٌ من الأمور التي لا أفهمها: لماذا لا يخبرنا الربّ بوضوحٍ، بما ينتظره منَّا؟

لم أحر جوابًا. تقلَّبت أندريه في سريرها، ورتَّبت وسائدها.

ـ أريد أن أسألك سؤالًا:

ـ سَلي.

ـ هل ما زلت تؤمنين بالربّ؟

لم أتردَّد في الجواب؛ في تلك اللَّيلة، لم تكن الحقيقة تخيفني.

أجبتُ:

ـ لم أعد أؤمن به.

قالت أندريه:

ـ كانت تراودني شكوكٌ في ذلك. (انتصبت على وسائدها، ثمَّ أضافت) سيلفي! لا يمكن أن تكون حياتنا هذه هي الحياة الوحيدة!

كرَّرتُ:

ـ ما عدتُ أؤمن.

قالت أندريه:

ـ أحيانًا، يصعب الفهم. لمَ يريد لنا الربُّ الشقاء؟ أخي يقول إنَّها معضلة الشرّ، معضلةٌ حلَّها آباء الكنيسة منذ زمنٍ بعيد، يردِّد على مسامعي ما يتعلَّمه في المدرسة اللَّاهوتيَّة. أجوبتُه لا تشفي أسئلتي.

قلتُ:

ـ إن كان الربُّ موجودًا، فلا سبيل إلى فهم الشرّ.

قالت أندريه: ربَّما علينا أن نتقبّل قصورَنا عن الفهم. من الغطرسة أن يريد الإنسان فهمَ كلّ شيء.

أطفأَت المصباح، وأضافت في همسٍ:

ـ بالتأكيد ثمَّة حياةٌ أخرى. يجب أن تكون ثمَّة حياةٌ أخرى!

لم يكن بوسعي أن أتوقَّع ما ينتظرني حين استيقظ. شعرت بشيءٍ من الخيبة. كانت أندريه هي نفسها، كما عرفتُها دائمًا، وكنتُ أنا أيضًا كما عرفَتْني دائمًا. وقلنا صباح الخير بالنَّبرة نفسها التي كنَّا نقولها بها دائمًا. وتواصلت خيبتي على امتداد الأيَّام اللاحقة. بالطبع، كنّا متَّحدتيْن لدرجة لا يمكن أن نطمح بعدها إلى درجةٍ أعلى. إنَّ بضعة جملٍ تُعتبر لا شيءَ حين توزن في ميزانِ صداقةٍ دامت ستّ سنين؛ لكنَّني حين كنتُ أتذكَّر تلك الساعة التي قضيناها في المطبخ، كنت أشعر بالحزن لأنَّ لا شيءَ حدث في الواقع.

ذات صباح، كنَّا جالستيْن تحت تينةٍ، نلتهم ثمراتٍ منها. إنَّ التِّين الأرجوانيّ الكبير الذي يباع في باريس يبدو بليدًا كالخُضر، على العكس تمامًا من هذه الثمرات الصَّغيرة الشاحبة، الممتلئة بمربًّى محبَّب.

قالت أندريه:

ـ لقد تحدَّثت اللَّيلة الماضية مع أمِّي.

أحسست بانقباضٍ في قلبي. كانت أندريه تبدو لي أقربَ إليَّ، كلَّما كانت بعيدةً عن أمّها.

ـ لقد سألتني عمَّا إذا كنت سأذهب إلى المناولة يوم الأحد. انزعجَتْ كثيرًا لأنَّني لم أحضر المناولة الأحدَ الماضي.

ـ هل عرفَت السَّبب؟

ـ ليس بالضبط. لكنَّني أخبرتها.

ـ آه! أخبرتها؟

أسندت أندريه خدَّها إلى شجرة التِّين:

ـ أمِّي المسكينة! إنَّها حاليًا مشغولة البال، مهمومةٌ جدًّا بسبب مالو، وبسببي أنا أيضًا!

ـ هل وبَّختكِ؟

ـ قالت إنَّها، من جهتها، قد سامحتني. ما تبقَّى هو شأنٌ بيني وبين القسّ الذي أعترفُ له. (نظرت إليَّ أندريه بملامح جادَّة) ينبغي أن نتفهَّمها. إنَّها مسؤولةٌ عن روحي: وهي أيضًا لا تعرف دائمًا ما يريده الربُّ منها. لا أحد يسهل عليه ذلك.

قلت على نحوٍ مبهمٍ:

ـ لا أحد يسهل عليه ذلك.

كنت أتميَّزُ من الغيظ. إنَّ مدام غالار تعذِّبُ أندريه، وأندريه تعتبرها الآن ضحيَّةً!

قالت أندريه بصوتٍ يظهر فيه التأثُّر:

ـ لقد تحدَّثت إليَّ أمِّي بطريقةٍ صدمتني. لعلمك، هي أيضًا عانت ظروفًا صعبةً عندما كانت صبيَّة. (نظرت أندريه حولها، ثمَّ أضافت) هنا، على هذه الطّرق، واجهت أوقاتًا عصيبة.

ـ هل كانت جدَّتك امرأةً متسلِّطة؟

ـ نعم.

ظلَّت أندريه حالمةً لبرهةٍ:

ـ أمّي تقول إنَّ في العالم نِعَمًا، وإنَّ اللّه يمتحنُنا بالتجارب، وإنَّه سيُعين برنار ويُعينني، كما أعانها هي من قبل. (بحثت بنظرتها عن نظرتي) سيلفي، كيف لك أن تطيقي الحياة إن لم تكوني تؤمنين بالربّ؟

قلت:

ـ لكنَّني أحبّ الحياةَ.

ـ أنا أيضًا. ولهذا السَّبب قلتُ ما قلتُه. إن آمنتُ بأنَّ من أحبّهم سيفنَون تمامًا بعد موتهم، فسوف أقتل نفسي على الفور.

قلت:

ـ لا أريد أن أقتل نفسي.

تركنا ظلّ التِّينة، وعُدنا إلى المنزل صامتتيْن. ويومَ الأحد التالي، ذهبت أندريه إلى المناولة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني

اجتزنا امتحانات البكالوريا، وبعد طول أخذٍ وردٍّ، وافقت مدام غالار على أن تدرس أندريه في السّوربون ثلاث سنوات. اختارت أندريه دراسة الأدب، وأنا اخترتُ الفلسفة. في المكتبة، كثيرًا ما كنَّا نشتغل جنبًا إلى جنبٍ، ولكنْ أثناء الدُّروس، أجد نفسي وحيدة. كنتُ أفزع من طريقة الطلَّاب في الكلام والتَّعبير والتَّصرُّف. فأنا بقيتُ مخلصةً لأخلاق المسيحيَّة، وبدوا لي مفرطين في تحرُّرهم. فليس من قبيل المصادفة إذن أنَّني ملتُ إلى باسكال بلوندل، فقد كان يتمتَّع بسمعة كونِه كاثوليكيًّا مُمارسًا. وبقدر ميولي إلى ذكائه، ملتُ إلى تربيته المثاليَّة ووجهه الملائكيّ الجميل. كان يبتسم لجميع زملائه، ولكنَّه يحفظ حدودَه مع الجميع، ويبدو أنَّه يحتاطُ بخاصَّةٍ من الطَّالبات. لكنَّ حماسيَ الفلسفيَّ انتصر على تحفُّظه. جمعتنا نقاشاتٌ طويلة رفيعة؛ وبالعموم، إن ضربنا صفحًا

عن مسألة وجود الإله، فقد كنَّا متَّفقيْن تقريبًا في كلِّ المسائل. قرَّرنا أن نتعاون، ولمَّا كان باسكال يكره الأماكن العامَّة والمكتبات والحانات، فقد صرت أذهب إلى منزله. كانت الشقَّة التي يعيش فيها مع والده وأخته، شبيهةً بشقَّة والدَيَّ، وأصابني ابتذال غرفته بالخيبة. حين كنتُ أخرج من مدرسة أديلايد، كان الشَّبابُ يمثِّلون في عينيّ أخويَّةً غامضة، فافترضتُ أنَّهم أعلمُ منِّي بأسرار الحياة. غير أنَّ أثاث باسكال، وكتبه، وصليب العاج، ونُسخ رسومات غريكو، لم يكن فيها ما يشير إلى أنَّ باسكال ينتمي إلى فصيلةٍ أخرى غير فصيلتنا أنا وأندريه. لقد سُمح له، منذ فترةٍ طويلة، بأن يخرج بمفرده ليلًا، وأن يقرأَ ما شاءَ. ومع ذلك، سرعان ما أدركت أنَّ أفقَه ضيِّقٌ كأفقنا. وقد نشأ في مؤسَّسةٍ دينيَّة كان والده مُدرِّسًا فيها، فلم يتعلَّق سوى بدراسته وأسرته. ولم يخطر ببالي آنذاك سوى أن أذهب إلى بيته، فلمَّا ذهبتُ فاجأني مدى التَّطابق بينَه وبين بيته. كان يهزّ رأسه قائلًا بنبرة الحنين التي يتحدَّث بها المسنُّون حسرةً على الماضي: «أبدًا، لن أكون أسعد ممَّا أنا عليه الآن». وكان يقول لي إنَّ والده رجلٌ رائعٌ. تزوَّج متأخِّرًا، بعد أن عاشَ شبابًا صعبًا، فألفى نفسَه وهو في الخمسين من عمره أرملَ، وتحت جناحه طفلةٌ في العاشرة من عمرها وطفلٌ لا يتجاوز بضعة أشهر؛ وقد ضحَّى بنفسه بالكامل من أجلهما. أمَّا بالنِّسبة إلى شقيقته، فإنَّ باسكال يراها قدِّيسة. لقد فقدت خطيبها أثناء الحرب، فقرَّرت ألَّا تتزوَّج أبدًا. شعرها الكستنائيُّ المشدود إلى الخلف، يجتمعُ في حزمةٍ كثيفةٍ، فيكشفُ عن جبهةٍ مزعجة؛ وكانت تتمتَّع ببشرةٍ

بيضاء، وعينيْن متّقدتيْن، وابتسامةٍ مُشرقة وصارمة؛ وكانت ترتدي دائمًا فساتين داكنة، تُفصّلها دومًا على الطِّراز نفسه، فساتين أنيقة ومتقشِّفة، تضيئُها ياقةٌ بيضاءُ واسعة. وقد سهرت بحماسةٍ على تعليم شقيقها، وحاولتْ توجيهه إلى الكهنوت؛ وشككتُ في أنّها تكتبُ مذكّراتٍ، وتحسب نفسَها يوجيني دو غِران[1]؛ لا بدَّ أنّها، بينما ترتق جوارب الأُسرة بيديْها السميكتيْن والمحمرّتيْن بعض احمرارٍ، تُردِّد في نفسها أبيات فِرلين: «الحياة المتواضعة، مع أشغال مملّة وبسيطة». تلميذًا مجدًّا، وابنًا بارًّا، ومسيحيًّا تقيًّا، كنتُ أرى باسكال شيئًا ما حكيمًا أكثر ممَّا ينبغي. وأحيانًا، أقول لنفسي إنّه لاهوتيٌّ جُرِّدَ من ثوبِه. أمَّا من جهتي أنا، فقد كنتُ أزعجُه في أكثر من موضعٍ. ورغم كلّ ذلك، ومع أنّني تعرَّفت لاحقًا على رفاقٍ آخرين أثاروا اهتمامي أكثر منه، إلّا أنَّ صداقتنا لم تفتر وظلّت على وثاقتها ثابتةً. حتّى إنّه هو من اخترتُه ليرافقني يوم احتفلَ آل غالار بخِطبة مالو.

لفرط ما لفَّت حول ضريح نابليون، واستنشقَت ورودَ منتزه باغاتيل، وتناولَت السّلَطة الروسيَّة في غابات لاند، وحفظَت عن ظهر قلب أوبرات كارمن، ومانون، ولاكامي، انتهى المطاف بمالو إلى العثور على زوج. منذ أن اعتمرَت قبّعة القدّيسة كاترين[2]، صارت

(1) يوجيني دو غِران، شاعرةٌ وأديبةٌ فرنسيَّة، أخت الشّاعر موريس دو غِران، اشتهرت برسائلها المتبادلة معه، ومذكّراتها التي كتبتها له.

(2) قبّعة كانت ترتديها العازبات، ممَّن بلغن سنّ الخامسة والعشرين فما فوق، في الخامس والعشرين من نوفمبر، معلناتٍ عن أنّهن لم يتزوَّجن بعد.

أمُّها تردِّد على مسمعها كلّ يوم: «أدخلي الدَّير، أو تزوَّجي؛ العزوبة ليست طريقًا». ثمَّ ذات مساءٍ، إذ همَّت بالخروج إلى الأوبّرا، قالت لها مدام غالار: «هذه المرَّة، إمَّا أن توافقي أو تتخلّي، المرَّة التالية سيكون دور أندريه».فكان أن وافقت مالو على الزواج من أرملٍ يبلغ من العمر أربعين عامًا، وله ابنتان. أقامت الأسرةُ بالمناسبة حفلًا صباحيًّا راقصًا. ألحَّت عليَّ أندريه بالحضور. ارتديتُ فستان الحرير الرَّماديّ الذي أورثتني إيَّاهُ ابنةُ عمٍ التحقت لتوِّها بالدَّير، وضربتُ لباسكال موعدًا أمام منزل آل غالار.

كان السيِّد غالار قد أحرز تقدُّمًا كبيرًا في مساره المهنيّ، خلال تلك السنوات الخمس، فصارت أُسرته تعيش في شقَّة فاخرة بشارع ماربوف. ولم تكن قدماي تقريبًا تطآن هناك. فالسيِّدة غالار تقول لي مرحبًا من طرف شفتيْها؛ ومنذ زمنٍ ما عادت تُقبِّلُني، لا بل ما عادت تكلِّف نفسها حتَّى عناء الابتسام في وجهي. لكنَّها، رغم ذلك نظرت إلى باسكال دون إنكار؛ كان يُعجِب كلَّ النساء، بسبب مظهره الواثق والمتحفِّظ في آن. أمَّا أندريه، فقد ابتسمت له ابتسامةً من تلك الابتسامات المستنسخة المكرَّرة؛ كانت حول عينيْها هالةٌ، فتساءلتُ هل بكَت. قالت لي: «إن كنتِ تريدين وضع بودرة، فإنَّ في غرفتي ما يلزم»، كان في كلامها تحريضٌ سرّيّ؛ ذاك أنَّ استخدامَ البودرة لم يكن ممنوعًا عند آل غالار؛ بينما لا تحظى تلك المادَّة بالرّضا عند أمّي، وأخواتها، وصديقاتها؛ يَقُلن إنَّ «أحمر الخدود يُفسد البشرة». أمَّا

أنا وأخواتي، فحين كنَّ ننظر إلى بشرتهنَّ الحزينة، كثيرًا ما كنَّا نقول «إنَّ حذَرهُنّ مُكلفٌ».

دهنتُ نفحةً على وجهي، وصففتُ مجدَّدًا شعريَ المقصوص كما اتَّفق، ثمَّ عدت إلى الصالون. كان الشباب يرقصون تحت الأبصار النَّاعمة للسيِّدات النَّاضجات. لم يكن جميلًا مشهدُ كلّ تلك الأثواب من التَّافتا إلى الساتان، وألوانِها من العنيف إلى العذب، وتلك الياقات على شكل القارب، والأقمشة ـ الأثاث الخرقاء التي تزيدُ قبحًا على قبحِ أولئك الصبايا المسيحيَّات المدرَّبات أكثر ممَّا ينبغي على نسيان أجسادهنّ. فقط أندريه كانت بهجةً للنظر. شعرها لامعٌ، وأظافرها برَّاقةٌ، وكانت ترتدي ثوبًا جميلًا، ووشاحًا أزرق داكنًا، وحذاءً عاليًا رقيقًا. على أنَّها، ورغم دوائر العافية التي رسمتها على خدَّيْها، كانت تبدو متعبةً.

قلت لباسكال:

ـ كم هو محزن!

ـ ماذا؟

ـ كل هذا!

أجاب بفرح:

ـ كلًّا.

لم يكن باسكال يشاركني آرائي المتشدِّدة، ولا لحظات حماسي النادرة. كان يقول إنَّ في كلِّ إنسان نستطيع أن نجد شيئًا

يستحقّ الحبّ. لهذا، كان يلذُّ الجميعَ: فخَلْف نظرتِه الكيِّسة، يشعر الجميع بأنَّهم محبوبون.

رقَّصني، فراقصتُ آخرين. كانوا جميعًا قبيحين، ولم يكن لديَّ ما أقوله لهم، ولا هم لديْهم ما يقولونه لي، فضلًا عن أنَّ الجوّ كان حارًّا، وأنا أشعر بالضَّجر. لم أغفل عن أندريه. كانت تبتسم لجميع فرسانها على قدم المساواة، وتحيِّي العجائز بتبجيلٍ تُحسِن، في تقديري، تصنُّعه أكثر من اللَّازم: لم أكن أحبُّ رؤيتها وهي تؤدِّي، بهذا القدر من اليسر، دورَها الاجتماعيّ كصبيَّةٍ. هل ستتركهم يزوِّجونها كما زوَّجوا أختها؟ كنتُ أتساءل في ضيقٍ. قبل بضعة أشهر، التقت أندريه برنار في بياريتز، كان يقود سيَّارةً زرقاءَ شاحبةً طويلة؛ ويرتدي بدلةً بيضاء، وخواتم، وإلى جانبه شقراء جميلة، الظاهر أنَّها مومس. تصافحا من غير أن يجدا ما يقولانه لبعضهما بعضًا. قالت لي أندريه: «أمِّي كانت مُحقَّة؛ لم نخلق لنكون معًا.» وفكَّرتُ: ربَّما كان الأمر ليكون مختلفًا لو لم يُفصَل بينهما، أو ربَّما لا. على أيِّ حال، منذ ذاك اللِّقاء الخاطف ما عادت أندريه تذكر الحب إلَّا بمرارة.

تمكَّنت من الاقتراب منها، بين رقصتيْن.

ـ أما من سبيل لنتحدَّث خمس دقائق؟

لمَسَت صدغها. لابدَّ أنَّها تعاني صداعًا، صارت تعاني منه كثيرًا في الآونة الأخيرة.

قالت:

ـ موعدُنا الدرَجُ، في الطابق العلْويّ. سأحاول أن أنسلَّ بهدوء.

ألقت نظرةً على الأزواج التي كانت تتشكّل.

ـ «أمهاتنا لا يسمحن لنا بالتنزُّه مع الشباب، ولكنَّهن يضحكن راضياتٍ وهنَّ يتابعننا نراقصهم، يا لبراءتهنّ!»

كثيرًا ما كانت أندريه تصرِّحُ علانيَّة، بما لا أستطيع أنا قولَه إلَّا همسًا. بلى، إنَّ لهؤلاء المسيحيَّات الصَّالحات أن يقلقنَ وهنَّ يرين بناتهنَّ ينقَدنَ إلى أذرع الذكور، بكلِّ التقوى والترفُّع. لشدّ ما كنت أكره، وأنا في الخامسة عشرة من عمري، دروسَ الرقص! كنت أشعر بضيقٍ لا سبيل إلى وصفه، أشبه ما يكون بدوار المعدة، بالتّعب، بحزنٍ، من دون أن أعرف السَّبب. ومنذ أن أدركت ذلك، صرت أتمنَّع، لفرط ما كان يبدو لي غير منطقيٍّ، بل ومزعجًا أن يؤثِّر على مزاجي أيُّ كانَ، بالاتِّصال فقط. ولكنْ بالتَّأكيد، إنَّ معظم هؤلاء العذارى هنَّ أكثر سذاجةً منِّي، أو أقلُّ حبًّا للذات؛ والآن، وقد بدأتُ أفكِّر في الأمر، صار النَّظر إليهنَّ يزعجني. تساءلتُ: وأندريه؟ غالبًا ما كانت تُجبرني سخريَّتُها على أن أُسائلَ نفسي أسئلةً تصدمني قبل حتَّى أن أصوغها. وافتني أندريه على الدرج؛ جلسنا على أعلى درجةٍ منه.

قالت:

ـ من الجيِّد أن يتنفَّس المرء قليلًا!

ـ هل تشعرين بصداع؟

ـ نعم.

ابتسمت أندريه، ربَّما بسبب الخليط الذي ابتلعته هذا الصباح. عادةً ما أبدأ يومي بكوب قهوةٍ أو كأس نبيذٍ أبيض؛ اليوم شربتهما معًا.

ـ القهوة والنبيذ؟

ـ إنَّ الخليط ليس بالسُّوء الذي تظنِّين. حتَّى إنَّه في البداية منحني دفعةً.

كفَّت أندريه عن الابتسام:

ـ «لم أنم طول اللّيل. حزنت جدًّا لمالو!»

لم تتفاهم أندريه وأختها قطّ، لكنَّ مصائر الناس تحزنُها.

واصلت:

ـ مسكينةٌ مالو! يومان وهي تركض بين صديقاتها طالبةً النّصحَ. وقد نصحوها جميعًا بأن تقبل. خاصَّة غوت.

أضافت أندريه ساخرةً:

ـ تقول غوت إنَّه حين تبلغ المرأةُ الثامنة والعشرين من عمرها، يصير غير مقبول أن تقضي اللّيالي بمفردها!

ـ وماذا عن قضائها صحبة رجلٍ لا تحبُّه، هل هو أمر ممتع؟ (ابتسمتُ وواصلت) هل ما تزال غوت تؤمن بنظريَّة الحبّ المقدَّس من النظرة الأولى؟

أجابت أندريه:

ـ أظنُّ ذلك.

أخذت تلعب في عصبيَّة بالسلسلة الذهبيَّة حيث علَّقت قلادتها.

قالت:

ـ آه! الأمر معقَّد. أنتِ، ستحصلين على وظيفة، وبالتَّالي تستطيعين أن توفِّري حاجياتك دون زواج. لكنْ بالنِّسبة إلى فتاة غير ذات شأنٍ، مثل غوت، ليس الأمر سهلًا.

كثيرًا ما أهنِّئ نفسي، في أنانيَّة، على كون البلاشفة وصروف الدَّهر قد تسبَّبوا بإفلاس والدي. أنا مجبرةٌ على العمل؛ وبالتَّالي، فإنَّ المشاكل التي تعذِّب أندريه لا تعني لي أنا شيئًا.

ـ ليس ممكنًا إذن السَّماح لكِ بأن تحضِّري لشهادة التّبريز؟

أجابت أندريه:

ـ مستحيل! العام القادم، سأحلّ محلّ مالو.

ـ وستحاول أمّك تزويجك؟

ضحكت أندريه ضحكةً مكتومة:

ـ أعتقد أنَّها قد بدأت بالفعل. ثمَّة شابٌّ من مدرسة البوليتكنيك، يسائلني مساءلةً جذريَّةً في ميولي. أخبرتُه أنَّ أحلامي الكافيارُ ودور الأزياء والملاهي الليليَّة، وأنَّ نوعيَّة الرِّجال الذين أفضِّلهم هم الرّجال على شاكلة الممثِّل لوي جوفيه.

ـ وهل صدَّقكِ؟

ـ على أيِّ حال، بدا قلقًا.

واصلنا الحديث بضع دقائق أُخر، ثمَّ نظرَت أندريه إلى ساعتها:

ـ يجب أن أعود إلى الأسفل.

لشدّ ما كنت أكره ذاك الإسار، إسار العبيد. حين نكون في المكتبة، نقرأ في نور المصابيح الخضراء الهادئ، أو نشرب الشّاي في شارع سوفلو، أو نتمشَّى في أزقَّة لوكسمبورغ، كانت أندريه تُلقي فجأةً نظرةً على ميناء ساعتها، فتهرب مذعورة: «لقد تأخرت!» كان لديْها دائمًا شيءٌ آخر لتفعله. كانت أمّها ترهقها أشغالًا، وهي تقوم بكلِّ ذلك في حماسة التَّائب؛ كانت عنيدةً في حبِّها لأمّها. وإذا ما كانت قد قرَّرَت عصيانَها في بعض الأمور، فذلك راجعٌ بالأساس إلى أنَّ أمّها قد أجبرتها عليها. بعد فترة وجيزة من إقامتي في بيتاري ـ ولم تكن أندريه آنذاك تتجاوز الخامسة عشرة ـ أحاطتها مدام غالار علمًا بكلِّ ما يتعلَّق بأمور الحبّ، في دقَّةٍ ووضوحٍ ما تزال الصبيَّة ترتجف لهما كلَّما خطرا ببالها. ثمَّ سمحت الأمُّ لابنتها بأن تقرأ لوكريتيوس، وبوكاتشيو، ورابليه؛ إنَّ الأعمال العارية، بل حتى الفاحشة ما كانت لتقلق تلك المرأة المسيحيَّة. لكنَّها بالمقابل، تمنع منعًا باتًّا كلّ الأعمال التي ترى فيها تحريفًا للعقيدة والأخلاق الكاثوليكيَّة. فإن أبصرَت في يد أندريه كتابًا لكلوديل أو مورياك أو برنانوس، قالت لها: «إن كنتِ تريدين معرفة دينك، فاقرئي لآباء الكنيسة». وكانت تقدّرُ أنَّني أمارس على أندريه تأثيرًا خبيثًا، فأرادت منعها من رؤيتي؛ لكنْ، بمؤازرةٍ من مرشدٍ ذي أفكارٍ منفتحة، استطاعت أندريه المقاومة.

على أنَّها لكي تُغفرَ لها دراستُها، وقراءاتُها، وصداقتُنا، كان عليها أن تطبّق تطبيقًا لا تشوبه شائبةٌ كلّ تلك الأمور التي تسمّيها مدام غالار «واجباتها الاجتماعيَّة». ذلكم هو السَّبب في أنَّها كثيرًا ما كانت تصابُ بالصّداع. فلمَّا كانت بالكاد تجد، خلال النهار، لحظةً تخلو فيها إلى كمانها، لم تكن تتبقّى لها إلَّا اللَّيالي تكرّسُها لدروسها. وعلى الرَّغم من سهولة الدُّروس بالنِّسبة إليها، إلَّا أنَّها لم تكن تنام كفايتَها.

نهاية النهار، راقصها باسكال كثيرًا؛ وإذ رافقني إلى بيتي، قال لي بهيأةٍ جادَّة:

ـ لطيفةٌ، صديقتك. كثيرًا ما كنت أراها معكِ في السوربون؛ لمَ لَم تقدِّميني إليها قطّ؟

قلتُ:

ـ لم يخطر ببالي ذلك؟

ـ أرغب في رؤيتها مرَّةً أخرى.

ـ أمرٌ سهل.

فاجأني تأثُّره بجاذبيَّة أندريه. كان لطيفًا مع النساء، كما الرِّجال، وربَّما مع النِّساء أكثر! لكنَّه على لطفه بهنَّ، لم يكن يقدِّرهنّ. وعلى الرَّغم من دماثته الشاملة، إلَّا أنَّه ما كان يرتبط بالآخرين إلَّا قليلًا. أمَّا أندريه، فأوَّل ما تواجه به دائمًا وجهًا جديدًا هو الحَذَر. إذ إنَّها لمَّا كبرت، اكتشفَت، في خزيٍ، الهاوية التي

تفصل بين تعاليم الإنجيل وبين السلوك الأنانيّ البائس الذي يسخّره المحافظون خدمةً لمصالحهم الشّخصيّة. وبمواجهة نفاقهم تحصّنت بنزعةٍ ساخرة. لذا، صدّقتني عندما أخبرتُها أنَّ باسكال ذكيٌّ جدًّا، ولكنْ على الرَّغم من ثورتها على الغباء، إلّا أنّها لم تكن تولي الذّكاء قيمةً تُذكر، فسألتني في شيءٍ من السَّخط: «وما الفائدة؟» لم أكن أدري عمَّا تبحث، لكنَّها كانت تقابلُ جميع القِيَم المتوافق عليها بالنَّزعة الشكوكيَّة نفسها. فإن حدث وأُعجبت بفنّانٍ أو كاتبٍ أو ممثّل، فإنّما تُعجب دائمًا لأسبابٍ تحكمها المفارقة، إذ لا تكاد تقدّر فيهم إلّا صفاتٍ تافهة، بل وحتى ملتبسة. فقد سحرها جوفيه حين أدّى دورَ سكّير، لدرجة أنّها علّقت صورته في غرفتها؛ وإنَّ نظير هذا الإعجاب يظلُّ في المقام الأوّل وسيلةً تتحدّى فضائلَ المحافظينَ الزائفةَ؛ فليست تأخذه حقًّا على محمل الجدّ. على أنّها بدت جادّةً حين قالت في باسكال: «وجدته لطيفًا جدًّا».

وكان أن أتى باسكال ليشرب معنا الشاي، في شارع سوفلو، ثمَّ رافقنا إلى لوكسمبورغ. ومنذ لقائنا الثاني، تركتهما بمفردهما، هو وأندريه، ثمَّ صارا بعدها يلتقيان في الغالب الأعمّ من دوني. ولم أكن أشعر بالغيرة. فمنذ تلك اللَّيلة المذكورة، في مطبخ بيتاري، حين بُحت لأندريه بشدَّةِ تعلُّقي بها، خفَّ ذلك التعلُّقُ. إنّها ما تزال تعني لي الكثير، لكنَّها لم تَعُد الآن وحدها، ثمَّة بقيَّة العالم، وثمَّة نفسي؛ لم تَعُد بالنّسبة إليَّ كلَّ شيء.

أرشيف صور سيمون دو بوفوار وإليزابيث لاكوان (زازا)

نشكر سيلفي لوبون دو بوفوار وجمعيَّة إليزابيث لاكوان على لُطف تعاونهم

أسرة لاكوان نحو سنة 1923 في هوبردان. زازا، هي الرَّابعةُ من اليسار في الصّف الثاني

واجهةُ المنزل في غانيُبان سنة 1927، حيث قضت زازا وسيمون عطلاتٍ طويلة

سيمون سنة 1915، قبل زمنٍ قصيرٍ من لقائها بزازا

موريس ميرلوبونتي، حبُّ زازا الكبير، ويُشار إليه في الكتاب باسم باسكال

صورة زازا، 1928

من اليسار إلى اليمين: زازا، سيمون، جنوفييف دو نوفيل، في غانيُبان شهر سبتمبر من سنة 1928. وكانت تجمع سيمون وزازا صداقةٌ منذ أن كانتا في العاشرة من عمرهما، تلميذتين في مدرسة ديزير بباريس

سيمون دو بوفوار تلعب التنس فى غانيُبان، سنة 1928

زازا وسيمون في غانيُبان، سبتمبر من سنة 1928

العمارة 71 بزقاق رين، حيث كانت تسكن سيمون بين سنتيْ 1919 و1929، بالطّابق الخامس يسارًا

جون بول سارتر وسيمون دو بوفوار، شهر يوليو 1929، في معرض ملاهي بورت أورليون

مقهى فلور الذي كانت سيمون تتردَّد عليه منذ سنة 1938

في حانة پون رويال سنة 1948

وإذ اطمأنَّت مدام غالار، وهي ترى أندريه تبلغ نهاية دراستها، من دون أن تفقد إيمانها أو أخلاقها، وقرَّت عينًا بالتّخلّص من ابنتها الكبرى، فقد تساهلت طوال فصل الربيع. والنَّتيجة: صارت أندريه تنظر إلى ساعتها أقلَّ فأقلَّ. كثيرًا ما كانت تلتقي وباسكال بمفردهما، وكثيرًا كذلك ما كنَّا نخرج ثلاثتنا. وسرعان ما بسط نفوذَه عليها. بدأ بالضحك على أفكارها اللَّاذعة، ونكاتها المحبِطة، ثمَّ ما لبث أن لامها على تشاؤمها، مؤكِّدًا: «إنَّ البشر ليسوا بهذا القدْر من السُّوء». كانا يناقشان مسألة الشرّ والخطيئة والنِعمة، واتَّهَمَها بالينسينيَّة[1]. وقد صدمها كلامه. في ابتداء علاقتهما، كانت أندريه كثيرًا ما تقول في دهشةٍ: «ما أصغره!»، ثمَّ انتهى بها المطاف إلى أن قالت في حيْرة: «حين أُقارنُ نفسي بباسكال، أشعر أنَّني عانسٌ ساخطة». ثمَّ قرَّرت في النِّهاية أنَّه هو من كان على حقّ.

قالت لي: «إنَّ الحكم مسبقًا بالشرّ على إخوتنا في الإنسانيَّة هو إساءةٌ للربّ»، وقالت: «يجب أن يكون المسيحيُّ صارمًا، ولكنْ لا ينبغي أن يعذِّبَ نفسَه.» وأضافت في حماسةٍ: «إنَّ باسكال هو أوَّل مسيحيّ حقيقيّ أقابله!»

وليست حجج باسكال فحسب هي من صالَحَ أندريه مع الطبيعة البشريَّة، والعالم، والربّ؛ بل إنَّ وجودَه نفسه هو من كان له كبير الفضل في ذلك، فقد كان مؤمنًا بالربّ، مُحبًّا للحياة، مبتهجًا، لا

(1) حركة دينيَّة ظهرت في فرنسا بين القرنيْن السابع عشر والثامن عشر، وتحوَّلت إلى قوَّةٍ سياسيَّة.

تشوبُه شائبةٌ: ليس جميع البشر إذن أشرارًا، ولا كلّ الفضائل زائفة؛ وبوسع الإنسان أن يفوز بالفردوس من غير أن يخسر الدّنيا. وما كان لي أنا إلّا أن أبتهج لانقياد أندريه؛ فقبل عامَيْن، كان إيمانها متذبذبًا، وقالت لي يومها: «ليس ثمَّة من إيمانٍ ممكنٍ إلّا إيمانٌ واحد: إيمان الفحّام[1]». ومنذ ذلك الحين، تعافَت؛ وما كنت أنا أرجو سوى ألّا تعتنق تصوُّرًا قاسيًا عن الدّين. إنَّ باسكال يشاركها إيمانها، وبالتّالي هو أقدر منّي على أن يبيِّن لها ألّا جُرم في أن يهتمّ الإنسان بنفسه أحيانًا. من غير أن يُدين السيِّدة غالار، بيَّنَ لأندريه أنَّها كانت مُحقَّةً في الدفاع عن حياتها الشخصيَّة. كان يردِّد عليها: «الربّ لا يريدنا أن نكون أغبياء: إن منحنا مواهبَ، فإنَّما لكي نستخدمها». وكلماته تلك أضاءت لأندريه السَّبيل؛ كأنَّما تخفّف ظهرُها من حِملٍ ثقيل. بينما تكتسي أشجار الكستناء في حدائق لوكسمبورغ بالبراعمِ، فالأوراقِ، ثمَّ الزُّهور، كنت أشهدُ تحوُّلها هي أيضًا. ببدلة الفلانيلّا وقبّعة القشّ، والقفّازيْن، كانت تتَّخذ الهيأة المتقشِّفة الملائمة لفتاةٍ في سنّها. وكان باسكال يمازحها في لطف: لماذا ترتدين دائمًا قبّعاتٍ تخفي وجهك؟ هل تلبسين قفّازيْك على الدَّوام؟ هل يمكننا أن نطلب من صبيَّةٍ ترتدي زيًّا بهذا الترتيب، أن تجالسنا في شرفة مقهى؟

كانت تبدو سعيدةً حين يمازحها. لم تشترِ قبّعةً جديدة، لكنَّها صارت تخفي قفّازاتها في قعر حقيبتها، وتجلس على شرفات

(1) المقصود إيمانٌ راسخٌ لا يهتزّ، إيمانٌ ساذجٌ مطلق، وأصل التعبير قصّةٌ ظهرت في القرن السابع عشر، تصوّر فحّامًا يواجه بثباتٍ وساوس الشّيطان.

مقاهي شارع سان ميشيل، وأصبحت مشيتها مفعمةً بالحيويَّة، على عهدها أيَّام كنَّا نتمشَّى تحت أشجار الصنوبر. حتى ذلك الحين، ظلّ جمال أندريه مكتومًا إلى حدٍّ ما؛ كان حاضرًا في أعماق عينيْها، يتجلَّى في إشراقاتٍ على وجهها، ولكنَّه غير ظاهر بالجُملة. ثمَّ هو ذا فجأةً يطفو على سطح جلدها، يطفح بارزًا مكشوفًا للعيان. كذلك رأيتها ذات صباحٍ، والجوّ عبقٌ برائحة الخضرة، على بحيرة غابات بولونيا. كانت تُمسك المجذافيْن؛ من دون قبَّعة، من دون قفازات؛ عارية الذّراعيْن، تشقُّ الماء بمهارة. شعرها مشرقٌ، وعيناها متَّقدتان. وباسكال قد أرخى يده تداعبُ الماء، وأخذ يدندن همسًا بأغنيةٍ؛ كان صوته جميلًا ويحفظ الكثير من الأغاني.

هو أيضًا يتغيَّر. أمام والده، وخاصَّةً أمام أخته، كان يبدو صبيًّا صغيرًا جدًّا. لكنْ إزاء أندريه يتحدّث بسُلطة رجلٍ. لا يعني ذلك أنَّه يتقمَّص الدَّور؛ وإنَّما هو ببساطة، يرتقي إلى مستوى تطلُّعها وحاجتها إليه. إمَّا أنَّني أسأت فهمَه، أو أنَّه كان ينضج. على أيِّ حال، لم يَعُد يشبه لاهوتيًّا؛ بدا لي أقلّ ملائكيَّةً ممّا كان عليه فيما مضى، ولكن أكثر بهجةً؛ وقد وافَقَتْه البهجةُ كلّ الموافقة. ظُهْر الفاتح من مايو، كان ينتظرنا على شرفة مقهى لوكسمبورغ؛ فلمّا أبصرنا، تسلَّق السُّور، واستقبلنا بخطوات بهلوانٍ قصيرة، مستخدمًا ذراعيْه كعصا موازنة: كان يحمل في كلِّ يدٍ باقةً من زهور زنبق الوادي. وثب إلى الأرض ومدَّ لنا الباقتيْن معًا. ولم تكن من فائدةٍ لباقتي أنا سوى خلق التماثل؛ فباسكال لم يُهدِني زهورًا قطّ. وقد

أدركَتْ أندريه ذلك، إذ احمرَّت خجلًا؛ وتلك المرَّة الثانية التي رأيتُها فيها تحمرُّ خجلًا. فكَّرت: «إنَّهما مغرمان بعضهما ببعض». إنَّه لحظٌّ عظيمٌ أن تُحبَّك أندريه؛ ولكنَّ فرحتي لها هي كانت أكبرَ. فهي لن تريدَ، ولن تستطيعَ، أن تتزوَّج رجلًا غير مؤمنٍ؛ وفي الآن نفسه، إن وقعت في شَرَك رجلٍ مسيحيٍّ صارمٍ، نظيرَ السيِّد غالار، فسوف تذوي وتذبل. أمَّا مع باسكال، فتستطيع أخيرًا أن تصالح بين واجباتها وسعادتها.

لم يكن لديْنا الكثير لنفعله، نهاية ذاك العام، فأكثرنا التَّجوال. لم يكن أحدٌ منَّا غنيًّا، فمدام غالار لا تعطي بناتها سوى مصروف الجيب الذي يحتجْنَه لشراء تذاكر الحافلات والجوارب؛ وقرَّر السيِّد بلوندل أن يكرّس باسكال جهدَه حصرًا لامتحاناته، فمنعه من إعطاء دروسٍ خصوصيَّة، مفضِّلًا أن يتحمَّل بنفسه ثقل السَّاعات الإضافيَّة؛ وأنا لم يكن لديَّ سوى طالبتيْن تدفعان لي أجرًا زهيدًا. ومع ذلك، استطعنا أن نرتِّب أمورنا، لنشاهد أفلامًا تجريديَّة في استوديوهات أورسولين، وحضور مسرحيَّاتٍ طليعيَّة في مسارح كارتل. وكلَّما خرجنا من عرضٍ، تناقشتُ وأندريه باستفاضة. أمَّا باسكال، فكان يكتفي بأن يُنصت إلينا في تسامح. كان يقرّ بأنَّه لا يحبّ سوى الفلسفة. أمَّا الفنّ والأدب، مجَّانًا، فيصيبانه بالضّجر. فإن ادَّعى هذا أو ذاك تمثيلَ الحياةِ، حكمَ عليه بالزّيف. كان يقول إنَّ المشاعر والوضعيَّات في الواقع ليست بالتَّعقيد والدراما التي تصوِّرها الكتب. وقد راقَ أندريه هذا الموقف

المبسّط. في المحصَّلة، لم تكن تميل إلى أخذ هذا العالم على محمل المأساويَّة، فكانت ترى أنَّ من الأفضل أن تكون حكمة باسكال وجيزةً، ولكنْ مرحة.

بعد الامتحان الشفويّ لنيل شهادتها، الذي اجتازته ببراعة، خرجت أندريه للتنزُّه مع باسكال. هو لم يدعُها قطُّ إلى منزله، ولا ريب في أنَّها ما كانت لتقبل دعوتَه لو فعل؛ فقد أخبرَت والدتها، بشكلٍ مبهمٍ، أنَّها تخرج معي ومع بعض الرِّفاق، لكنَّها لم ترغب في أن تبوح لأمِّها، ولا أن تخفيَ عليها، أنَّها قضت فترة ما بعد الظَّهيرة في بيت شابٍّ. فظلَّا يلتقيان دائمًا في الخارج ويتجوَّلان كثيرًا. وقد لقيتُها غداة الامتحان في مكاننا المعتاد تحت البصر الميِّت لملكةٍ قُدَّت من حجر. وكنت قد اشتريتُ كرزًا، حبَّاتٍ سوداء كبيرة من تلك التي كانت تحبّها، لكنَّها امتنعت عن تذوُّقها، وبدت قلقةً.

بعد برهةٍ، قالت لي:

ـ لقد أخبرت باسكال عن قصَّتي مع برنار.

صوتها يرتجف.

ـ ألم تخبريه من قبل؟

ـ كلَّا. طيلة الفترة الماضية وأنا أفكِّر في ذلك. شعرت أنَّ عليَّ أن أحدِّثه في هذا الموضوع، لكنَّني لم أجرؤ على ذلك.

بعد تردُّد أضافت:

ـ كنت أخشى أن يسيء الحكم عليَّ.

قلتُ:

ـ يا لها من فكرة!

عرفتُ أندريه طيلة عشر سنوات، وما تزال قادرةً على الإيقاع بي في الحيرة.

قالت بنبرةٍ جادَّة:

ـ أنا وبرنار لم نقم بأمرٍ مشين؛ لكنَّ الحقّ أنَّنا كنَّا نتبادل القبل، ولم تكن قبلنا أفلاطونيَّة. إنَّ باسكال بريءٌ جدًّا. خشيت أن أصدمَه.

أضافت في ثقة:

ـ لكنَّه غير متشدِّد إلَّا مع نفسه.

قلت:

ـ كيف له أن يُصدم؟ أنتِ وبرنار كنتما مجرَّد طفليْن، وكنتما تحبّان بعضكما بعضًا.

قالت أندريه:

ـ بوسع المرء أن يُذنبَ في أيّ سنٍّ؛ والحبّ ليس مبرِّرًا لكلِّ شيء.

قلت:

ـ لا بدَّ أنَّ باسكال قد وجدك يانسينيَّة بحقّ!

لم أكن أفهم سبب وساوسها؛ لكنَّ الحقَّ أنَّني لم أكن أفهم أيضًا ما تعنيه لها تلك القبلات الطفوليَّة.

قالت:

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ لقد تفهَّمني. إنَّه دائمًا ما يتفهَّم.

أجالت النّظر حولها:

ـ وأنا التي كنت أفكِّر في قتل نفسي حين فرَّقتْ أمِّي بيني وبين برنار؛ كنت آنذاك على يقينٍ من أنَّني سأحبُّه إلى الأبد!

كان في صوتها تساؤلٌ قلق.

قلت لها:

ـ من الطَّبيعيِّ أن يخطئ الإنسان التقدير حين يكون ما يزال في الخامسة عشرة من عمره.

أخذت أندريه ترسم بطرف نعلها خطوطًا على الرّمال:

ـ ما العمر الذي نكسب فيه الحقّ في التَّفكير؛ أليس التَّفكير حقًّنا دائمًا؟

حين تكون قلقةً يتصلَّبُ وجهها، يكاد يبدو مصنوعًا من عَظمٍ.

قلت:

ـ الآن، أنتِ لستِ مخطئةً.

قالت:

ـ ذاك ما أعتقده أنا أيضًا.

واصلت رسم خطوطٍ غير واضحةٍ على الأرض:

ـ لكنْ أنَّى لنا أن نتأكَّد من أنَّ ذاك الذي نحبّه سيبادلنا الحبَّ إلى الأبد؟

قلت:

ـ أظنُّ أنَّ تلك أمورٌ تُحَسُّ.

مدّت يدها في كيس الورق البنّيّ، وتناولت صامتةً بعض حبَّات الكرز.

قالت:

ـ «أخبرني باسكال أنَّه حتَّى الآن، لم يحبّ أيَّ امرأة.»

بحثتْ بنظرتها عن عينيَّ: لم يقل لي إنَّه لم يكن يحبّ أيّ امرأةٍ؛ وإنَّما قال لي إنَّه لم يحبَّ أيّ امرأة.

ابتسمتُ:

ـ إنَّ باسكال دقيقٌ؛ يزن كلّ كلمةٍ من كلماته.

قالت أندريه:

ـ طلب أن نذهب إلى المناولة معًا صباح الغد.

لم أردّ بشيء. بدا لي أنَّني لو كنت مكانَ أندريه، لشعرت بالغيرة وأنا أرى باسكال يناول؛ صحيح أنَّ الكائن البشريّ شيءٌ هيِّنٌ جدًّا قياسًا إلى الربّ. ومع ذلك، لا أنسى أنَّني في الماضي كنت أحبُّ في آنٍ أندريه والربّ، حبًّا عظيمًا.

صار مقرَّرًا الآن، بيني وبين أندريه، أنَّها تحبُّ باسكال. وصار هو يتحدَّث إليها بثقةٍ أكبر من تلك التي كان يتحدَّث بها إليها في الماضي. قال لها إنَّه، بين عمر السادسة عشرة والثّامنة عشرة، كان يريد أن يصبح كاهنًا. وقد بيّن له مرشدُه بأنَّه لم يكن منذورًا لتلك المهمَّة، إنَّما اختارها بإيعازٍ من أخته، ثمَّ إنَّه لم يكن ينتظر من الدِّراسات اللَّاهوتيَّة

أكثر من ملجأ ضدّ العصر وضدّ مسؤوليّات الكبار التي كانت ترهبه. لقد ظلّ ذلك التوجُّس حاضرًا عنده لفترةٍ طويلة، وهو ما يفسّر أحكامَه المسبقة تجاه المرأة. تلك الأحكام التي صار اليوم يلوم نفسه عليها أشدّ ما يكون اللّوم. يقول لأندريه بمرح: «ليست الطّهارةُ أن ترى في كلّ امرأةٍ شيطانًا». قبل أن يعرف أندريه، لم يكن يستثني من أحكامه سوى أخته التي كان يعتبرها روحًا طاهرةً؛ وأنا، لأنّني لم أكن أحفل حقًّا بكوني امرأة. أمّا الآن، فقد صار مدركًا بأنّ النّساء، بما هنّ نساء، هنّ مخلوقاتٌ من مخلوقات الربّ. وأضاف: «لكنْ ليس ثمّة في العالم بأكمله إلّا أندريه واحدة فقط»، قال ذلك بنبرةٍ دافئةٍ نزعت من قلب أندريه كلّ شكٍّ، لم تَعُد لديْها ريبةٌ في حبّه.

سألتُها:

ـ هل ستتراسلان خلال العطلة؟

ـ نعم.

ـ وماذا ستقول مدام غالار؟

قالت أندريه:

ـ أمّي لا تفتح رسائلي، ثمّ إنّها ستنشغل هذه العطلة بأمورٍ أخرى، أهمّ من مراقبة البريد. هذه العطلة تحديدًا، ستكون ضاجّةً بسبب خطوبة مالو.

حدّثتني أندريه في الأمر بتوجُّس، ثمّ سألتني:

ـ هل ستأتين إن سمحت لي أمّي بدعوتِك؟

قلتُ:

لن تسمح لكِ بذلك.

علَّقت أندريه ضاحكةً:

ـ ليس مؤكَّدًا. مين وليليت ستكونان في انجلترا، والتوأمتان أصغر مَن يشكِّل عليهما تأثيرك خطورةً. (أضافت بجدِّيَّة) لقد صارت أمِّي تثق بي الآن؛ واجهتُ أوقاتًا عصيبة، ولكن انتهى بي المطاف إلى كسبِ ثقتها؛ لم تَعُد تخشى أن تتسبّبي في انحرافي.

كنت أشكّ في أنَّ أندريه لا تتمنَّى حضوري، بدافع الصداقة فحسب، وإنَّما لأنَّها ستكون فرصةً تحدِّثني فيها عن باسكال. ولم أكن أتمنَّى أكثر من أن ألعب دور أمين السرّ؛ لذا سعدتُ غاية السعادة حين قالت لي أندريه إنَّها تعوِّلُ عليَّ مطلعَ شهر سبتمبر.

* * *

خلال شهر أغسطس، لم تصلني من أندريه سوى رسالتيْن، وكانتا قصيرتيْن جدًّا؛ كانت تكتب من سريرها فجرًا: «أثناء النهار، لا أجد دقيقةً واحدة أخصِّصها لنفسي». تنام ليلًا في غرفة جدّتها، ولأنَّ نوم جدَّتها خفيفٌ، فإنَّها تضطرّ إلى أن تنتظر حتَّى يتسلَّل الضّوء من المناور لكي تستطيع القراءة أو كتابة الرَّسائل. المنزل في بيتاري يغصُّ بالناس، ثمَّة الخطيبُ وشقيقتاه، شابَّتان عليلتان لا تفارقان أندريه برهةً. كذلك حضر أبناء العمومة، من آل ريفيير دو بونوي، عن بكرة أبيهم؛ والسيِّدة غالار تجهِّز الاحتفال بخطوبة مالو،

وترتّب مقابلاتٍ لأندريه؛ كان موسمًا برّاقًا، تعقب فيه الاحتفالاتِ احتفالاتٌ. كتبت لي أندريه: «هكذا، أتخيَّلُ المَطْهَر». وكان مقرَّرًا أن ترافق مالو، في شهر سبتمبر، إلى منزل أهل خطيبها؛ وتلك مهمَّةٌ تثقل عليها؛ لحسن حظّها، كانت تصلها رسائلُ طويلةٌ من باسكال. وكنتُ أنا مشتاقةً لرؤيتها، إذ كنت أشعر بالملل في ساديرناك ذلك العام، وكانت الوحدةُ ترهقني.

على رصيف المحطَّة، كانت تنتظرني أندريه، وقد ارتدت فستانًا من قماشٍ ورديًّا، واعتمرت قبّعةً من قش؛ ولم تأتِ لاستقبالي بمفردها؛ ركضت إليَّ التوأمتان، إحداهما ترتدي فستان فيشي ورديًّا، والأخرى فستان فيشي أزرق، طول رصيف المحطَّة وهما تصيحان: «ها هي سيلفي! مرحبا سيلفي!» بشعرهما المرسل، وعيونهما السوداء، ذكّرتاني بالصبيَّة الصغيرة ذات الفخذ المحترق التي سلبت قلبي قبل عشر سنوات. فقط خدودهما كانت أكثر امتلاءً، ونظرتهما أقلّ جرأة. ابتسمت لي أندريه ابتسامةً قصيرة، ولكن حيَّة، حتَّى إنَّها بدت لي تفيض عافيةً.

سألتني وهي تمدّ إليَّ يدها:

ـ هل كانت رحلتكِ جيِّدة؟

قلت:

ـ كالعادة، كلَّما سافرتُ وحدي.

نظرت الصغيرتان إلينا نظراتٍ متسائلة:

سألت التوأمةُ الزرقاء أندريه:

ـ لماذا لا تقبّليها؟

أجابت أندريه:

ـ هناك أشخاصٌ نحبّهم كثيرًا، ومع ذلك لا نقبّلهم.

قالت التوأمة الورديَّة:

ـ هناك أشخاصٌ نقبّلهم، ولا نحبّهم.

قالت أندريه:

ـ بالضبط.

وأضافت:

ـ احملا حقيبةَ سيلفي إلى السيَّارة.

أمسكت الصغيرتان بحقيبتي، وسارتا تتقافزان نحو سيَّارة السيتروين السوداء المركونة أمام المحطَّة.

سألتُها:

ـ كيف تسير الأمور؟

ـ لا جيِّدة ولا سيِّئة؛ سوف أخبرك.

جلسَتْ إلى المقود، وجلستُ أنا بجانبها، بينما استقرَّت التوأمتان في المقعد الخلفيّ حيث ركامٌ من الرّزم. واضحٌ أنَّني هبطتُ عليها في معمعة الحياةِ الشَّديدة التَّنظيم؛ لا ريب في أنَّ مدام غالار قد قالت لها: «قبل أن تذهبي لاستقبال سيلفي، عليك أن تذهبي للتسوُّق، ثمَّ مُرّي على الصَّغيرتيْن» وساعة الوصول، يجب أن تفرِّغ كلّ هذه الرّزم.

كانت أندريه تلبس قفّازيْن، وتحرّك مقابض السيَّارة، وإذ أمعنتُ فيها النَّظر، انتبهتُ إلى أنّها نحفت.

قلت:

ـ فقدتِ شيئًا من وزنك؟

ـ قليلًا، ربما.

صاحت إحدى التّوأمتيْن:

ـ طبعًا؛ أمّي توبّخها، ومع ذلك لا تأكل أيَّ شيء.

كرَّرت التوأمةُ الأخرى كالصَّدى: لا تأكل أيَّ شيء.

قالت أندريه:

ـ كفِّي عن التفوُّه بالحماقات. لو لم أكن آكلُ أيّ شيءٍ، لكنتُ ميّتة.

انطلقت السيَّارة بهدوءٍ. على المقود، تبدو اليدان درِبتيْن؛ كلّ ما تقوم به أندريه، تُحسِنُه.

ـ هل تحبّين القيادة؟

أجابتني:

ـ لا أحبّ أن أؤدِّيَ دور السَّائق طوال اليوم، لكنَّني أحبُّ القيادة.

سارت السيَّارة على امتداد أشجار السنط الزائف، لكنَّني لم أتعرَّف على الطريق. هناك على المنحدر الكبير، حيث كانت

مدام غالار تشدّ الزّمام شدًّا، والحصان يكافح في خطواتٍ صغيرة، سُوّيت الأرضُ. وما كدنا ننطلق حتّى كنّا قد بلغنا الجادة. شجيرات البقس قد قُلّمت حديثًا. لم يتغيَّر المنزل؛ لكنَّهم زرعوا أمام درجات المدخل أحزمةً من زهور البيغونيا، وحُزمًا من زهور الزينيا.

قلت:

ـ لم تكن هذه الزهور هنا فيما مضى.

قالت أندريه بنبرةٍ ساخرة:

ـ كلّا، إنّها قبيحة. ولكن الآن، وقد صار عندنا بستانيٌّ، يجب أن نشغّله.

أخذت حقيبتي، وقالت للتّوأمتيْن:

ـ «أخبرا أمّي أنّني قادمةٌ على الفور».

تعرَّفت على الدهليز ورائحته الرِّيفيَّة. خطوات الدرج ما تزال، على عهدي بها، تطقطقُ. ولكنْ عند جناح الدَّرج، انعطفَت أندريه يسارًا:

ـ لقد أنزلناكِ في غرفة التوأمتيْن. وهما ستناماان معي أنا وجدَّتي.

دفعت أندريه بابًا، ووضعت حقيبتي على الأرض:

ـ تقول أمّي إنَّنا إن نزلنا معًا في غرفةٍ واحدة، فلن يغمض لنا جفنٌ طيلة اللَّيل.

قلتُ:

ـ مؤسف!

قالت أندريه:

ـ نعم، لكن على أيّ حالٍ، من المبهج أنَّكِ هنا.. أنا سعيدةٌ جدًّا!

ـ أنا أيضًا.

قالت:

ـ سننزل ما إن تكوني مستعدَّة. يجب أن أذهب لمساعدة أمّي.

ثمَّ أغلقت الباب. لم تكن تبالغ عندما كتبت لي: «لا أملك دقيقة»؛ أندريه لا تبالغ البتَّة. ومع كلّ انشغالها، وجدتِ الوقتَ لتقطف لي ثلاث ورودٍ حمراء، زهورها المفضَّلة. تذكَّرت نصًّا من إنشائها أيَّام كانت طفلةً: «أحب الورود. إنَّها زهورٌ شعائريَّةٌ، تموت من دون أن تذبل، تموتُ مبجَّلةً». فتحت خزانةً، أعلّق فيها ثوبيَ الوحيد ذا اللَّون البنفسجيّ المتردِّد؛ فوجدت رداء حمَّام، ونعلًا، وأيضًا فستانًا أبيض جميلًا منقَّطًا بالأحمر. وعلى منضدة المرحاض، وضعتْ أندريه صابونًا بعطر اللَّوز، وقارورة كولونيا، وبودرة الأرز من درجة راشيل. أثَّرت فيَّ مبادرتها.

تساءلت: «لماذا لا تأكل؟» ربَّما كشفت مدام غالار الرّسائل. وإن؟ لقد مرّت خمس سنوات، فهل سنستعيد القصَّةَ نفسَها على بدء؟ خرجتُ من غرفتي، ونزلت الدّرج. كلَّا، هذه المرّة لن تتكرَّر القصَّة. أندريه لم تَعُد طفلة. أشعرُ، بل أعرف، أنَّها تحبّ باسكال حبًّا لا شفاء منه. طمأنتُ نفسي بأنَّ مدام غالار لن تجد حجَّةً تعترض

بها على زواجهما؛ وعمومًا يمكن القول إنَّ باسكال «شابٌّ جيِّدٌ من كلِّ الجوانب».

جلبةٌ عاليةٌ تتناهى من الصالون. أفزعتني فكرةُ مواجهة كلّ هؤلاء الناس العدوانيِّين، بدرجةٍ أو بأخرى: أنا أيضًا لم أَعُد طفلةً. دخلت المكتبة، أنتظر جرس العشاء؛ تذكَّرت الكتب، والبورتريهات، والألبوم الكبير ذا الجلدة الفاخرة المزيَّنة بنقوشٍ وزخارفَ من مثل تلك التي تزيِّن السقوف؛ فكَّكت المشبك المعدنيّ. توقَّفَتْ نظرتي عند صورة السيِّدة ريفيير دو بونوي؛ في الخمسين من عمرها، وقد ربطت رأسَها بعصاباتٍ سوداء مسطَّحة، وهيأتُها متسلِّطة؛ لا شيء فيها يشبه الجدَّة الودودَ التي نعرفُها اليومَ؛ وكانت قد أجبرت ابنتها على الزواج من رجلٍ لا تريده. قلَّبتُ بضع ورقاتٍ، وتفحَّصتُ صورةَ مدام غالار أيَّامَ صباها؛ صدارٌ يخنق رقبتَها، وشعرها منفوشٌ فوق وجهٍ ذكيٍّ تعرَّفتُ فيه على فم أندريه، فمٍ صارمٍ وممتلئ، لا يبتسم؛ وفي عينيْها شيءٌ جذَّابٌ. ثمَّ في صورةٍ أخرى، أبعد قليلًا، وجدتها تجلس بجانب شابٍّ ملتحٍ، وتبتسم لطفلٍ قبيح. وقد اختفى من عينيْها ذلك الشَّيء. أغلقتُ الألبومَ، اتَّجهتُ صوبَ النافذة ـ الباب، وفتحتها قليلًا. نسيمٌ يهبُّ على زهراتِ قمر العامِ، فتخشخش لهبوبه جلاجلُها الصَّغيرةُ؛ الأرجوحةُ تَصرُّ. فكَّرتُ: «كانت في مثل عمرنا نحنُ». كانت تصغي إلى همس اللَّيل، تحت النجوم نفسها، وتقطع لنفسها عهدًا «كلَّا، لن أتزوَّجه». لماذا؟ هو ليس قبيحًا ولا غبيًّا، ويملك مستقبلًا مشرقًا، وكمًّا من الفضائل. هل كانت تحبُّ شخصًا

آخر؟ هل استسلمت للخيالات والأوهام؟ أمَّا اليوم، فتبدو متوافقةً تمامًا مع حياتها، كأنَّما هذه هي الحياة التي خُلقت لها!

قُرع جرس العشاء، فقصدت غرفة الطّعام. صافحت الكثيرين، لكنْ لم يأخذ أحدهم الوقت أو العبءَ ليسألني عن أخباري، ثمَّ سرعان ما أُهمِلتُ. وطوال الوجبة، ظلَّ تشارل وهنري ريفيير دو بونوي يدافعان، في ضجَّةٍ، عن الحركة الفرنسيَّة ضدّ البابا الذي كان يدافع عنه السيِّد غالار. أمَّا أندريه، فكانت تبدو مهتاجةً. وكان جليًّا أنَّ مدام غالار تفكِّر في شيءٍ آخر. عبثًا، حاولتُ أن أعثر في هذا الوجه المصفرّ على ملامح صبيَّة الألبوم. أقول لنفسي «رغم كلّ شيءٍ، لا بدَّ أنَّ لها ذكريات! أيّ ذكريات؟ وماذا تصنع بها؟»

بعد العشاء، أخذ الرجال في لعب البريدج، بينما استأنفت النّساء أعمالهنَّ. وكانت الموضة الرَّائجة في ذلك العام، هي القبَّعات الورقيَّة: يقطّع الورقُ السَّميك إلى شرائحَ رقيقة، فترطّبُ لتُنعَّمَ، وتُضفر بإحكام، ثمَّ يُدهن كلّ ذلك بضربٍ من الطّلاء. وأمام الأبصار المعجبة للآنستيْن سانتُناي، صنعت أندريه شيئًا أخضرَ.

سألتها:

ـ هل ستكون قبَّعة جرس؟

أجابت بابتسامةٍ متواطئة:

ـ كلَّا، قلنسوة نساءٍ واسعةً.

طلبت منها أنييس سانتُناي العزف على الكمان، لكنَّ أندريه رفضت. وأدركتُ أنا، أنَّني لن أتمكَّن من الحديث إليها طيلة المساء، فآويت إلى فراشي مبكِّرًا.

وفيما تلا من أيَّام، لم أستفرد بها لحظة. صباحًا، كانت تعتني بالمنزل؛ وبعد الظهر، يتكدَّسُ الشّباب في سيَّارة السيد غالار، وسيَّارة شارل ليذهبوا للعب التنس أو الرقص في القلاع المحيطة؛ أو أنَّنا نهبط بعض القرى، لنَحضر فيها بطولة كرة باسكيَّة، أو سباق بقرٍ لاندي. وكانت أندريه تضحك حين يستوجب المقامُ الضحك. لكنَّني لاحظتُ أنَّها في الواقع لا تكاد تأكل شيئًا.

وفي ليلةٍ، استيقظتُ على صوت باب غرفتي يُفتَح:

ـ «سيلفي، هل نمتِ؟»

أندريه تدنو من سريري، ملفوفةً في رداء حمَّامٍ من نسيج بيلو، حافية القدميْن.

ـ كم السَّاعة؟

ـ الواحدة.

ـ إن لم تكوني نعسانةً، فلننزل إلى الأسفل. في الأسفل، نستطيع أن نتحدَّث أفضل؛ أمَّا هنا، فيمكن أن نُسمَع.

لبستُ ثوب البيت، ونزلنا الدرج، متجنِّبتيْن جعل درجاته تصرّ. دلفت أندريه إلى المكتبة، وأوقدت مصباحًا.

ـ في اللَّيالي السَّابقة، لم أتمكَّن من مغادرة السّرير من دون أن أوقظَ جدَّتي؛ عجيبٌ كم هو خفيفٌ نومُ المسنِّين!

قلت:

ـ لشدَّ ما وددتُ أن أتحدَّث معكِ.

تنهَّدت أندريه:

ـ وأنا، لو تعلمين! منذ بداية العطلة، ونحن على هذه الحال. لا حظَّ لي. كنت أودُّ لو أُترك وشأني قليلًا، هذا العام!

سألتها:

ـ وأمّك، ما زالت لا تشكّ في الأمر؟

أجابت:

ـ وا أسفًا! انتهى بها المطاف إلى أن انتبهت، في الأسبوع الماضي، إلى تلك المظاريف المكتوبة بخطّ يد رجل، فاستجوبتني. (هزّت أندريه كتفيْها) على أيِّ حال، كان لا بدَّ لي من أن أفصح لها عن الأمر عاجلًا أو آجلًا.

ـ وإذن؟ ماذا قالت؟

ـ أخبرتُها بكلِّ شيء. لم تطلب الاطِّلاع على رسائل باسكال، ولم أكن أنا لأُطلِعها عليها. لكنَّني قلت كلّ شيء. لم تمنعني من مواصلة التراسل معه. لكنَّها أخبرتني بحاجتها إلى التَّفكير في الأمر.

جالت نظرةُ أندريه محيطَ الغرفة، كما لو أنَّها تلتمس العَوْنَ؛ على أنَّ الكتبَ الجامدة، وصورَ الأجداد لم تكن لتُطمئنَها.

ـ هل بدا عليها الاستياء؟ متى تعرفين قرارها؟

قالت أندريه:

ـ ليس عندي أدنى فكرة. لم تعلّق بشيء، اكتفت بطرح الأسئلة. ثمَّ قالت بنبرةٍ جافَّة: أحتاج أن أفكِّر.

قلت في حماس:

ـ لا سبب عندها لرفض باسكال. حتى من وجهة نظرها، لا يعدُّ باسكال خيارًا سيِّئًا.

قالت أندريه:

ـ لا أدري. في أوساطنا، لا تتم الزيجات هكذا. (وأضافت بمرارة) الزّواج عن حبٍّ مريبٌ.

ـ لن يمنعوك من الزواج بباسكال لمجرَّد أنَّك تحبِّينه!

كرَّرت أندريه بصوتٍ شارد:

ـ لا أدري. (ألقت إليَّ بنظرةٍ خاطفةٍ، ثمَّ شردت في البعيد) لا أعرف حتَّى ما إذا كان باسكال يفكِّر في الزَّواج منِّي.

ـ لا تقولي هذا! إن لم يكن قد أفصح لك عن ذلك، فإنَّما لأنَّه يعتبره من البيِّن بنفسه. بالنِّسبة إلى باسكال، أن يحبّكِ وأن يرغب في الزواج منكِ، هما شيءٌ واحد.

قالت أندريه:

ـ لم يخبرني قطّ بأنّه يحبّني.

ـ أعرف. ولكنْ في باريس، في الآونة الأخيرة، لم تكوني تشكّين في حبّه لكِ. وكنتِ محقّةً: حبّه لكِ بيّنٌ.

داعبت أندريه عِقدها؛ وظلّت لبرهةٍ صامتةً لا تتكلّم.

ـ في أولى رسائلي، بُحت لبسكال بحبّي؛ وربّما أخطأتُ في ذلك. لكنْ لا أدري كيف أشرح لكِ: لم يكن بمقدوري أن أصمت وأكتم مشاعري على الورق، فذلك بالنّسبة إليَّ صنوُ الكذب.

أومأتُ برأسي، أعرف أنَّ أندريه لم تكن يومًا قادرةً على الخداع.

مكتبة
t.me/t_pdf

واصلَت أندريه:

ـ لقد ردّ على رسالتي برسالةٍ جميلة. لكنّه قال إنّه لا يأنس في نفسه الأهليّة لنطق كلمة: حبّ. وضّح لي أنّه لا يملك أيّ تجربةٍ ملموسةٍ سواءً في حياته الدّنيويّة أو حياته الدينيّة: لذا، يحتاج إلى تمحيص مشاعره.

قلت:

ـ لا تقلقي إذن. لطالما عاتبني باسكال على القطع في آرائي قبل وضعها على المحك؛ إنّه هكذا! يحبّ أن يأخذ وقته. لكنْ سرعان ما سيخرج من تجربته بنتيجة.

كنت أعرف باسكال بما يكفي لكي أدرك أنَّه لا يخادعها؛ لكنَّني كنتُ مستاءةً بعض الشّيء من تردُّده. لو أنَّه قطع في حبّه لأندريه، فاطمأنَّت، لنامت وأكلت على نحوٍ أفضل.

ـ هل أخبرتِه بما دار بينك وبين مدام غالار من حديث؟

قالت أندريه:

ـ نعم.

ـ سوف ترَين بنفسك؛ ما إن يتسرَّب إليه الخوف على علاقتكما، ما إن يشعر أنَّها في خطر، حتَّى يتيقَّنَ من مشاعره.

عضَّت أندريه على إحدى قلائدها. وقالت بغير اقتناع:

ـ سأنتظر، وأرى.

ـ صدقًا يا أندريه، هل تظنِّين أنَّ باسكال قد يحبُّ امرأةً أخرى؟

تردَّدت:

ـ قد يكتشف أنَّه ليس منذورًا لحياة الزواج.

ـ لا تظنِّينَ أنَّه ما يزال يفكِّر في الالتحاق بالكهانة!

قالت أندريه:

ـ ربَّما كان ليفكِّر فيها، لو أنَّه لم يقابلني. ربَّما أكون فخًّا وُضع في طريقه لتحويله عن مسارِه الحقّ...

نظرتُ إلى أندريه في اضطرابٍ؛ كان باسكال يحسبها يانسينيَّة؛ فلو علمَ أنَّ الأمر أسوأ! إنَّها تشتبه في أنَّ الربّ يحيك المكائدَ الشّيطانيَّة.

قلتُ:

ـ هذا غير منطقيّ. أقصى ما قد أتصوَّره أنَّ الربّ قد يغوي النّفوسَ، لكنَّه أبدًا لن يخادعها.

هزَّت أندريه كتفيْها:

ـ يُقال إنَّ علينا أن نؤمن بالشّيء تحديدًا لأنَّه غير منطقيّ. لذا، انتهى بي الأمر إلى الاعتقاد في أنَّه كلَّما بدت الأمور غير منطقيَّة، رَجَحَ صوابُها.

تحادثنا مدَّةً، ثمَّ فجأةً فُتح باب المكتبة. وقال صوتٌ صغيرٌ: «ماذا تفعلان هنا؟»

كان ذاك صوت ديدي، التوأمة الورديَّة، وهي المفضَّلة عند أندريه.

قالت أندريه:

ـ وأنتِ؟ لماذا غادرت سريرك؟

اقتربت ديدي، ورفعت بيديْها معًا قميصها الأبيض الطويل:

ـ أيقظتني جدَّتي، إذ أشعلتِ المصباح؛ وسألَت عنكِ، فقلت لها سأذهب لأرى...

وقفت أندريه:

ـ لُطفًا. سأقول لجدَّتي إنَّني قد أرِقتُ، فنزلت لأقرأ في المكتبة. فلا تذكري لها أمر سيلفي؛ وإلَّا وبَّختني أمّي.

قال ديدي:

ـ هذه كذبة.

قالت أندريه:

ـ أنا سأكذب؛ أمَّا أنتِ، فما عليكِ إلَّا أن تصمتي؛ لن تكذبي. (ثمّ أضافت بثقة) حين نكبر، يصير من المسموح لنا أن نكذب أحيانًا.

قالت ديدي بحسرة:

ـ من المريح أن نكون كبارًا.

أجابت أندريه وهي تداعب شعرها:

ـ هناك إيجابيَّات وسلبيَّات.

ولمَّا عدتُ إلى غرفتي، فكَّرت: «أيّ عبوديَّةٍ هذه! أمّها وجدَّتها تراقبان أدنى حركةٍ أو سَكنةٍ تصدر عنها؛ وعلى الفور، تصير حركاتُها وسكناتها أمثلةً لشقيقاتها الصَّغيرات. ما من فكرةٍ تخطر ببالها، إلَّا وعليها أن تقدِّم بها تقريرًا إلى الربّ! وهذا هو الأسوأ». وذلك ما قلته لنفسي في اليوم التالي، بينما أندريه تصلِّي إلى جانبي على مقعدٍ، عليه صحيفةٌ من نحاسٍ تشير، منذ ما يقارب قرنًا من الزمان، إلى أنَّه محجوزٌ لآل ريفيير دو بونوي. كانت مدام غالار تعزف على أرغن القَدَم؛ والتوأمتان تلفَّان الكنيسة حاملتيْن سلَّةً من حلوى البريوش المباركة؛ أمَّا أندريه، فكانت، واضعةً رأسها بين يديْها، تتحدَّث إلى الربّ؛ بأيِّ كلمات كانت تفعل؟ لم تكن علاقتها به بسيطة؛ كنتُ متأكِّدةً من شيءٍ واحد: لم تستطع أن تقنع نفسها بطيبته. ومع ذلك،

لم تكن تريد أن تُغضبه، وحاولت أن تحبّه؛ كانت الأمور لتكون أبسط بالنِّسبة إليها، لو أنَّها، مثلي، فقدت إيمانها بمجرَّد أن نُزع عنه طابعه السَّاذج. تابعتُ التوأمتيْن بعينيّ؛ كانتا مشغولتيْن وتشعران بنفسهما مهمَّتيْن؛ حين كنت في سنِّهما، كان الدّين بالنِّسبة إليَّ لعبةً ممتعة؛ لوَّحتُ بأعلام، وألقيت بتلاتِ وردٍ أمام الكاهن المرصَّع بالذَّهب، حاملًا بيده القربانَ المقدَّس؛ وسرتُ في موكبٍ مرتديةً زيّ التناول، وقبَّلت أحجار خواتم أرجوانيَّة كبيرة في أصابع الأساقفة. لم تعرف طفولتي ترفًا غير مذابح القربان، ومذابح شهر مريم (مايو)، ومغارات الميلاد، والمواكب، والملائكة، والبخور، وكلّ تلك العطور، والباليهات، والحليّ الرائعة. وكم كان مبهجًا أن أشعر، في غمرة انبهاري بكلّ تلك الرَّوعة، بروحٍ بيضاء ومشعَّةٍ مثل الخبز في وعاء القربان المقدَّس! ثمَّ في يومٍ من الأيَّام، تُظلمُ الروح والسماءُ، ويتسلَّل إلى النَّفس الندم والخطيئة والخوف.

حتى عندما تقتصر أندريه على النَّظر إلى الأمور من جانبها الدنيويّ المحض، فإنَّها تأخذ بجدِّيَّةٍ مفزعةٍ كلّ ما يحدث من حولها؛ كيف لها إذن ألّا تقلق وهي تفكّر في حياتها، في الضوء الغامض للعالم الماورائيّ؟ قد يكون الوقوف في وجه أمّها بمثابة الثورة على الربّ نفسه؛ ولكنْ قد يكون في خنوعِها واستسلامها علامةٌ على أنَّها غير جديرةٍ بما وهبَها الربُّ من نِعَم. كيف لها أن تعرف أنّها بحبّها باسكال، لم تكن تخدم مقاصدَ الشيطان؟ في كلِّ لحظةٍ كانت تقامرُ بالأبديَّة، ولا علامة واضحة تبيِّنُ لها ما إذا كانت على طريق الفوز أو

الخسارة! وكان باسكال قد ساعد أندريه في مقارعة تلك الأهوال. لكنَّ حديثنا الليليّ بيَّنَ لي أنَّها على وشك الارتداد مجدَّدًا إلى هوَّة مخاوفها. قطعًا، ليست الكنيسة هي المكان الذي تجد فيه سلامَ نفسِها.

بقيتُ مضغوطةً طوال فترة ما بعد الظهر، أتابع دونما بهجةٍ أبقارًا مدبَّبةَ القرون تحمل فلّاحين شبابًا شاحبين من الهلع. وخلال الأيَّام الثلاثة التالية، ظلَّت جميع نساء المنزل يشتغلن بلا هوادة في القباء؛ حتَّى أنا كنت أقشّر البازلاء، وأنزع من الخوخ نواه. في كلِّ عام، يجتمع كبار ملَّاك الأراضي بالمنطقة، على ضفاف نهر الأدور، ليتناولوا أطباقًا باردةً؛ ويتطلَّبُ هذا الاحتفال البريءُ تحضيراتٍ طويلة. قالت لي أندريه: «كلُّ عائلةٍ تريد أن تقدِّمَ أفضل ممَّا تقدِّمه أيّ عائلةٍ أخرى؛ وكلّ عامٍ ينبغي أن يكون أفضل من العام الذي سبقه». فلمَّا طلع الصباح، حُمِّلت سلَّتان ممتلئتان بالأطعمة والأطباق في شاحنةٍ صغيرةٍ مؤجَّرة، وتزاحم الشباب فيما تبقَّى من حيِّز فيها؛ أمَّا كبار السنّ والخطيبان، فقد لحقوا بنا في سيَّارات. وكنتُ قد ارتديت الفستان الأحمر المنقَّط الذي أعارتني إيَّاه أندريه، بينما ارتدت هي فستانًا من خام الحرير، وتنطَّقت بحزامٍ أخضر متناسبٍ مع قبَّعتها الكبيرة التي تكاد لا تبدو مصنوعةً من الورق.

«مياهٌ زرقاء، سنديانٌ عتيق، عشبٌ كثيف؛ كنَّا لنتمدَّد على العشب، ونتناول شطيرةً، ونتحادث حتَّى المساء؛ نقضي ظهيرةَ سعادةٍ مثاليةً»، قلت لنفسي في أسىً بينما أساعد أندريه في تفريغ السّلال.

لكنْ ليس لنا إلَّا المتاعب! كان ينبغي مدُّ الموائد، ووضعُ البوفيه عليها، ونشر المفارش في الأماكن المناسبة. وصلت سيَّاراتٌ أخرى: سيَّاراتٌ جديدةٌ، وأخرى عتيقة، بل حتَّى عربةُ محطَّةٍ يجرُّها حصانان. وبدأ الشّباب على الفور في تحريك الأطباق. بينما جلس المسنُّون على جذوع الأشجار المغطَّاة بالقماش أو على مقاعدَ قابلة للطيّ. وكانت أندريه تستقبلهم بالابتسامات وعبارات التقدير؛ كانت تعجِبُ على وجه التَّخصيص الرّجال المسنِّين، وتخصّهم بأحاديثَ طويلة. وفي أثناء ذلك، كانت تناوِبُ مالو وغوت في إدارة مقبض آلةٍ معقَّدة، تعمل على تحويل الكْريمة التي تُعبَّأ فيها إلى مثلَّجات؛ وساعدتهنّ أنا أيضًا.

قلت وأنا أشير إلى الموائد التي ملأتها الأطعمة:

ـ هل تدركين!

قالت أندريه:

ـ نعم، حين يتعلَّق الأمر بالواجبات الاجتماعيَّة، فنحن جميعًا مسيحيُّون بحقّ!

لم نفلح في تحويل الكْريمة إلى مثلَّجات. استسلمنا، وجلسنا حول مفرشٍ من مفارش المائدة، ضِمن حلقةٍ من هم فوق العشرين من أعمارهم. كان ابنُ العمِّ، شارل، يتحدَّث بصوتٍ عالٍ مع فتاةٍ قبيحةٍ جدًّا، ترتدي ملابسَ عجيبة: لا لون فستانها ولا نسيجه كان لهُما اسمٌ في معجمنا.

همست أندريه:

ـ إنَّ هذه النزهة أشبه ما تكون ببال منطقة الحزام الأخضر.

قلت:

ـ هل هي مقابلة؟ الفتاةُ قبيحةٌ جدًّا.

قالت أندريه ساخرةً ـ ولكنَّها غنيَّةٌ جدًّا. ثمَّة ما لا يقلُّ عن عشر زيجات غير معلنة.

وكنتُ آنذاك أميل إلى الشراهة، لكنَّ وفرة الأطباق التي توزِّعها النادلات وجدِّيَّتَها، ثبَّطت شهيَّتي. جيلي سمك، وكورنيه، وآسبك لحم، والجلانتين، والبالوتين، والدوب، والشو ـ فروا، والباتيه، والترِّين، والكونفيه، والدودين، والمقدونيَّة والمايونيز، والتورت، والفطائر، والفرنجيبان[1]؛ كان لزامًا علينا تذوُّق كلّ صنفٍ، حتّى لا نؤذي مشاعر أحد. لا بل أكثر! فضلًا عن تناول الطّعام، كان يلزم الحديث عنه. وكانت شهيَّة أندريه أفضل من المعتاد، وفي بداية الوجبة كانت مبتهجةً إلى حدٍّ ما. جارُها عن يمينٍ، وهو شابٌّ أسود الشّعر وسيمٌ يبدو مزهوًّا بنفسه، ظلّ يحاول باستمرار لفت نظرتها إلى نظرته، وكان يتحدَّث إليها بصوتٍ خفيض؛ ثمَّ ما لبثت أن اهتاجت: تورَّد صدغاها من أثر الغضب أو النبيذ. جميع مُلّاك حقول الكَرم حملوا عيِّناتٍ من أنبذتهم، فشربنا الكثير من القناني.

(1) الأطباق «كلّها» فرنسيّة، فاحتفظنا بأسمائها، ونوردها هنا كما تكتب بالفرنسيَّة حتَّى يتسنَّى للقارئ البحث عنها إن رغب في ذلك:
Poissons en gelée, cornets, aspics et barquettes, galantines, ballottines, daubes, chauds-froids, pâtés, terrines, confits, dodines, macédoines et mayonnaises, tourtes, tartes et frangipanes.

واشتعل الحديث، ومضى يتطوَّر حتَّى بلغنا به موضوعَ المغازلة: هل يمكننا أن نُغازِل؟ وإلى أيِّ حدٍّ؟ وبالعموم، كان الجميع ضدّ الفكرة، لكنَّها مناسَبةٌ للتعليقات الجانبيَّة المتهكِّمة بين الفتيان والفتيات؛ إنَّ هؤلاء الشباب هم بالجملة متشدِّدون؛ مع أنَّ من الواضح أنَّ من بينهم من هم ليسوا أسوياءَ؛ كان ثمَّة الكثير من الضحكات المشاكسة المكتومة. وانطلق الشبابُ المنتشون إلى سرد قصصٍ لائقة، ولكنْ بنبرةٍ توحي بأنَّهم يستطيعون أن يحكوا قصصًا أخرى غير لائقة. فتحنا قنينةَ شمبانيا كبيرةً، واقترح أحدهم أن نشرب جميعًا من الكأسِ نفسها، حتَّى يعرف كلٌّ منَّا خواطرَ جاره. وانتقلت الكأس من يدٍ إلى يد؛ فلمَّا بلغت يدَ الوسيم ذي الشّعر الأسود المزهوّ بنفسه، أفرغها في جوفه، ومدَّها إلى أندريه، وهو يهمس في أذنها بكلماتٍ؛ وبضربةٍ من ظاهر يدها، أرسلت الكأسَ تتدحرج على العشب.

قالت بصوتٍ قاطع:

ـ لا أحبّ الاختلاط.

سادَ صمتٌ محرج، ثمَّ ما لبث شارل أن قهقه في صخبٍ:

ـ إنَّ عزيزتنا أندريه لا تريدنا أن نعرف أسرارَها؟

قالت:

ـ ولا أريد أن أعرف أسرار غيري. ثمَّ إنِّي شربتُ كثيرًا. (قامت واقفةً) سأُحضر القهوة.

تبعتُها بعينيّ في حيْرة؛ أنا كنت لأشرب من دون أن أصنع من الأمر قضيَّةً. طبعًا، إنَّ خَلْف هذا التهتُّك البريء شيئًا ما مثيرًا للرِّيبة، لكنْ فيمَ يهمُّنا نحن ذلك؟ لا شكَّ في أنَّ أندريه كانت ترى شيئًا من الدَّنس في ذاك اللّقاء الزائف بين فميْن يشتركان بكوبٍ واحد: هل كانت تفكِّر في قبلات برنار القديمة، أو في تلك التي لم يمنحها إيَّاها بعدُ باسكال؟

لم تَعُد أندريه؛ فقُمت من مكاني أنا أيضًا، وتوغَّلتُ في ظلال السنديان. ومجدَّدًا، تساءلتُ عمَّا كانت تعنيه بالضبط حين كانت قد تحدثت عن قبلاتٍ لم تكن أفلاطونيَّة.

وكنت قد عمَّقتُ البحثَ في المشاكل الجنسيَّة، وعرفَ جسدي، في طفولتي ومراهقتي، أحلامَه؛ لكنْ لا علميَ الواسعُ، ولا تجربتي الضيِّقةُ، كانا ينفعاني في إدراك الروابط التي تجمع تجليَّات الجسد بالحنان والسعادة. بالنِّسبة إلى أندريه، كان ثمَّةَ ممرٌّ يصل القلب بالجسد، ممرٌّ ما يزال لغزًا بالنِّسبة إليَّ.

خرجت من بين حزمة الأشجار. كان نهر الأدور قد انعطفَ، فألفيت نفسي على ضفَّته. سمعت صوت شلّال. في قعر الماء الشفيف، بدت حصى اليشب مثل حلوى في شكل حصى.

ـ سيلفي!

كان ذاك صوت مدام غالار، محمرَّةً تمامًا تحت قبَّعتها القشّ:

ـ هل تدرين أين أندريه؟

قلت:

ـ أنا أبحث عنها.

ـ لقد مرّ على اختفائها نحو ساعة. الحقّ، أنَّ هذا تصرُّفٌ يفتقر إلى التهذيب.

قلتُ لنفسي: إنَّها قلقة. لا ريب في أنَّها تحبُّ أندريه، تحبُّها بطريقتها الخاصَّة؛ لكنْ أيّ طريقة؟ هذا هو السُّؤال. كلٌّ منَّا يحبُّها بطريقته الخاصَّة.

صار صوت الشّلال يجتاح آذاننا هادرًا. توقَّفت مدام غالار:

ـ كنت متأكّدة!

تحت شجرةٍ، بالقرب من حزمة لحلاح، لمحتْ فستانَ أندريه، حزامها الأخضر، قماش الكتّان الخام.

اقتربت مدام غالار من النهر:

ـ أندريه!

شيءٌ ما تحرَّك عند سفح الشلّال، ثمَّ برز رأس أندريه:

ـ تعالَيْ! الماءُ رائع!

ـ هلَّا خرجتِ فورًا!

سبحت أندريه نحونا، بوجهٍ ضاحك.

قالت مدام غالار:

ـ مباشرةً بعد الغداء.. قد تصابين بعسر الهضم!!

صعدَت أندريه إلى الشاطئ؛ وقد لفَّت رأسَها بعباءةٍ ثبَّتتَها بدبابيس؛ شعرها الذي سرَّحه الماءُ ينسدل على عينيْها.

قالت مدام غالار وقد تلطَّفَ صوتُها:

ـ آه! تبدين حقًّا جميلة! كيف ستجفِّفين نفسك؟

ـ سأتدبَّر أمري.

قالت مدام غالار:

ـ أتساءل ما مقصد الرّبّ من منحي صبيَّةً كهذه!

وابتسمتْ، لكنَّها أضافت بقسوة:

ـ عودي فورًا. واجباتُك تنتظرك.

ـ أنا قادمة.

ابتعدت مدام غالار، وجلستُ أنا على الجانب الآخر من الشجرة، بينما ترتدي أندريه ملابسها.

قالت:

ـ آه! كم كنت مرتاحةً في الماء!

ـ لا بدَّ أنَّه كان مثلَّجًا.

قالت أندريه:

ـ حين نزل ماء الشلَّال على ظهري، تقطّع نَفَسي لأوَّل وهلة، لكنَّه كان جيّدًا.

اقتلعتُ زهرة لحلاح، وأنا أتساءل عمَّا إذا كانت حقًّا سامّةً هذه الزهور الغريبة التي تبدو في عريها، ريفيَّةً ومتمدِّنةً في آنٍ، وتنبثق من الأرض دفعةً واحدة، كالفطر.

سألت:

ـ هل تظنّين أنَّ الأختيْن سانتيناي ستهلكان إن أطعمناهما قليلًا من مرق اللّحلاح؟

قالت:

ـ المسكينتان! إنَّهما ليستا لئيمتيْن.

اقتربَت منّي، وكانت قد ارتدت فستانها، وجعلت تشدّ حزامَها.

قالت:

ـ تنشَّفتُ بقميصي التحتيّ. لن ينتبه أحدٌ إلى أنّني لا أرتدي قميصًا تحتيًّا. دائمًا ما نحمل على أجسادنا من الملابس أكثر ممَّا نحتاج! بسطت في الشمس ملاءتها المبلولة وثوبها المجعَّد.

ـ يجب أن نعود إلى هناك.

ـ للأسف!

ـ مسكينة يا سيلفي! لابدَّ أنَّك تشعرين بالملل هناك.

ابتسمَت لي، وأضافت:

ـ الآن، وقد انتهينا من النزهة، آمل أنّي سأنعم بشيءٍ من الحرِّيَّة.

ـ هل تظنّين أنَّك تستطيعين الترتيب لنلتقي قليلًا؟

قالت بصوتٍ حازم:

ـ سأرتِّبُ لذلك، بطريقةٍ ما.

ولمَّا كنَّا عائدتيْن ببطءٍ على امتداد النّهر، قالت لي:

ـ وصلتني رسالةٌ من باسكال هذا الصباح.

ـ رسالةٌ سارَّة؟

أومأَت:

ـ نعم.

فركَت ورقةَ نعناع في يدها واستنشقَتها، وقد انشرَحت أساريرُها.

واصلَت حديثها:

ـ يقول إنَّها علامةٌ جيِّدةٌ، أن تطلب أمِّي مهلةً للتَّفكير. يقول إنّني ينبغي أن أتحلَّى بالثقة.

ـ هذا ما أظنّه أنا أيضًا.

قالت أندريه: أنا على ثقة.

وددتُ لو أسألها لماذا ألقت كأس الشمبانيا على الأرض، لكنَّني خفت أن أنغِّص عليها. وفيما تبقَّى من النّهار، ظلَّت أندريه لطيفةً مع الجميع. أمَّا أنا، فبالكاد كنت أستمتع. ولم يتغيَّر الحال فيما تلا ذلك من أيَّامٍ، لم تحظَ أندريه بقدْرٍ أكبر من الحرِّيَّة. وترسَّخ لديَّ اليقين: إنَّ السيِّدة غالار تحرص كلّ الحرص على ألَّا نختلي ببعضنا

بعضًا. لا بدَّ أنَّها حين اكتشفت رسائل باسكال، قد عضَّت أصابعها ندمًا لأنَّها سمحت لي بالقدوم، وهي ذي تُصلح خطأها بأفضل ما يمكنها الإصلاح. وما زال حزني يشتدُّ للرّحيل الوشيك. حتَّى قلت لنفسي ذات صباحٍ: «مطلعَ العام الدراسيّ، سيُقام زفاف مالو، وتحلُّ أندريه محلّ شقيقتها في المنزل والمجتمع، سأراها، خطفًا، بين مزادٍ خيريّ وجنازةٍ.» وكان الصباح المذكور، صباحَ اليوم السَّابق ليوم مغادرتي، وكنتُ على عادتي في أحايينَ كثيرة، قد نزلت إلى الحديقة بينما ما يزال الجميع رقودًا. الصيفُ يُحتضر، والشجيراتُ قد احمرَّت، وتوت الغبيراء الأحمر يصفَرُّ. وتحت أنفاس الصباح البيضاء، اشتدَّ وهجُ نُحاس الخريف. وكنت أحبُّ أن أرى الأشجارَ المشتعلة فوق العشب الذي ما يزال يتصاعد منه البخارُ بفعل البرد. وبينما أُسايرُ في شجنٍ الأزقةَ المكشوطة جيِّدًا، حيث لم تَعُد تنبت زهرةٌ، تهيَّأ لي أنَّني أسمع صوت موسيقى: اتَّجهت صوب الصوت، وكان عزفَ كمان. أقصى الحديقة، كانت أندريه تعزف، مختفيةً وسط باقةٍ من أشجار الصنوبر. وقد ألقت شالًا عتيقًا على فستانها الجيرسيه الأزرق، وأخذَت تنصت في رويَّةٍ إلى صوت الآلة النائمة على كتفها. شعرُها الأسود الجميل يفرقه عند الجانب خطٌّ مستقيمٌ، ذو بياضٍ مبهرٍ، يثير في النَّفس الرَّغبة في أن تتبعه متلمِّسةً بالإصبع، في رقَّةٍ وتبجيل. لمدَّةٍ، ظللتُ أتابع القوسَ وهو ينوس، جيئةً وذهابًا، على الأوتار، وفكَّرت وأنا أتأمَّل أندريه: «كم هي وحيدة!»

انطفأت النَّوتةُ الأخيرة، فدنوتُ من أندريه، وأنا أكسر إبر الصنوبر تحت قدميَّ.

قالت أندريه:

ـ آه! هل سمعتني؟ هل يُسمعُ عزفي من المنزل؟

قلت:

ـ لا. كنت أتنزَّه. ما أجملَ عزفك!

تنهَّدَت أندريه:

ـ لو أنَّني كنت أملك بعض الوقت للتّمرُّن!

ـ هل تقدِّمين هذه العروض في الهواء الطَّلق، كثيرًا؟

ـ لا، ولكنْ منذ بضعة أيَّام، اشتدَّت بي الرَّغبة في العزف، وما كنت أريد أن يسمعني كلّ ذلك الخلق.

أودعَت أندريه الكمانَ في تابوته الصغير.

ـ يجب أن أعود قبل أن تستيقظ أمِّي؛ ستقول إنَّني مجنونة، وجنوني يعارض مصلحتي.

سألتها ونحن نسلك طريق المنزل:

ـ هل ستأخذين كمانك معك إلى بيت سانتيناي؟

ـ بالطبع لا! آه.. إنَّ تلك العطلة ترعبني. على الأقلّ، هنا أنا في المنزل.

ـ هل من الضروريّ أن تذهبي؟

ـ لا أريد خصام أمِّي لأسبابٍ تافهة. خاصَّةً في الظَّرف الرّاهن.

قلت:

ـ أتفهَّم ذلك.

دخلت أندريه المنزل، وجلستُ أنا وسط عشب الحديقة، وفي يدي كتابٌ. ثمَّ برهةً بعد ذلك، أبصرتُها تقطف الورود مع الأختيْن سانتيناي، ثمَّ انصرفَت إلى تقطيع حطب الفرن، كانت تتناهى إليَّ ضربات الفأس المكتومة. الشمس ترتفع في السماء وأنا أقرأ بلا متعة. لم أَعُد متأكِّدةً ممَّا إذا كان قرار مدام غالار سيكون إيجابيًّا! لن تحصل أندريه، شأن أختها، إلَّا على مهرٍ متواضع، لكنَّها أجمل وأذكى من مالو، فلا بدَّ أنَّ والدتها تغذِّي تجاهها طموحاتٍ كبيرة.

فجأةً، انطلقت صرخةٌ هائلة؛ صرخةٌ من حَنجرة أندريه. ركضت صوب الفرن. كانت مدام غالار قد مالت على أندريه التي رقدت في نشارة الخشب، عيناها مغمضتان، وقدمها نازفة. وحدُّ الفأس ملطخ بالأحمر.

صاحت مدام غالار:

ـ مالو، هاتِ عُدّتك، لقد أصيبت أندريه!

وطلبت منِّي أن أهتف إلى الطبيب، فلمَّا عُدت كانت مالو تضمِّد قدم أندريه، وأمّها تشمّمُها الأمونيا. فتحَت عينيْها، وهمست:

ـ أفلتَ منِّي الفأس!

قالت مالو:

ـ العظمُ لم يُمسّ. إنَّه جرحٌ بليغٌ، ولكنَّ العظمَ لم يُمسّ.

أُصيبت أندريه ببعض الحمّى، ورأى الطبيب أنَّها مرهقةٌ جدًّا، فأمر لها براحةٍ طويلة. على أيِّ حال، لم يكن بمقدورها أن تستخدم قدمَها قبل عشرة أيَّامٍ تقريبًا. وعندما دخلتُ إلى غرفتِها، في المساء، كانت شديدة الشّحوب، لكنَّها ابتسمت لي ابتسامةً واسعة، وقالت بصوتٍ منتصر:

ـ أنا طريحة الفراش حتى نهاية الأعياد!

سألتها:

ـ هل تشعرين بالألم؟

قالت:

ـ بالكاد! حتَّى لو تألَّمتُ عشرة أضعاف هذا الألم، فسأفضِّل الألمَ على الذَّهاب إلى سانتيناي.

نظرت إليَّ في مكرٍ:

ـ هذا يسمَّى حادثًا من تدبير القدر!

حدَّقتُ فيها في حيْرة:

ـ أندريه! لا تقولي إنَّك قد تعمَّدتِ إصابة نفسك!

أجابت في مرحٍ:

ـ ما كان لي أن أَمل في أن يتدخَّل القدر لأجل أمرٍ تافه كهذا.

ـ كيف واتتك الشَّجاعةُ؟ كان يمكن أن تبتري قدمك!

تراجعتْ إلى الخلف، وضغطتْ برأسها على الوسادة، وقالت:

ـ ما عدت أستطيع التحمُّل.

مكثَت برهةً تحدِّق في السَّقف صامتةً. وأمام وجهها الأبيض الطباشيريّ، وعينيْها الثابتتيْن، شعرتُ بخوفٍ قديمٍ ينبعث فيَّ. أن أرفع الفأس، وأهوي بها: ذلك ما لن أقدرَ أبدًا على فعله. لمجرَّد التَّفكير في الأمر يشمئزّ دمي. إنَّ ما حدث فيها في تلك اللَّحظة هو ما أفزعني.

ـ هل تشكّ أمّك في شيء؟

استقامت أندريه في جلستها:

ـ لا أظنُّ، قلتُ لكِ إنَّني سأتدبَّر أمري لأجد الرّاحة.

ـ ممَّا يعني أنَّك كنت عازمةً على الأمر.

ـ كنت عازمةً على القيام بشيءٍ ما. لكنَّ فكرة الفأس لم تخطر ببالي إلَّا هذا الصباح بينما أقطف الزهور. فكَّرت بدايةً في أن أصيب نفسي بمقصّ النّباتات، لكنْ لم يكن ذلك ليكون كافيًا.

قلت:

ـ أنتِ تخيفينني.

ابتسمت أندريه ابتسامةً عريضة:

ـ لماذا؟ لقد أحسنتُ صنعًا؛ لم أضرب بقوَّة أكبر ممَّا يلزم.

أضافت:

ـ هل تودِّين أن أستأذن أمّي في بقائك حتّى نهاية الشهر؟

قلت:

ـ لن توافق.

ـ دعيني أتحدَّث إليها!

هل شكّت مدام غالار في الحقيقة، فأصابها النّدم والخوف؟ أم أنَّ تشخيص الطبيب هو ما أقلقها؟ الحالُ، أنَّها وافقت على بقائي في بيتاري كي أؤنس أندريه.

غادر آل ريفيير دي بونوي في الوقت نفسه الذي غادر فيه مالو وسانتيناي، فأصبحَ المنزل بين عشيَّة وضحاها، هادئًا جدًّا. واستقرَّت أندريه في غرفةٍ لها وحدها، وصرتُ أقضي ساعاتٍ طوالًا بجانب سريرها.

ثمَّ، صباح يومٍ من الأيَّام، قالت لي:

ـ لقد جمعني بأمّي، ليلة أمس، حديثٌ طويل، موضوعه باسكال.

ـ والنَّتيجة؟

أشعلت أندريه سيجارة. كانت تدخِّن حين تشعر بالتوتُّر.

ـ لقد ناقشَتْ أبي في الموضوع. وليس لهما ما يعيبان باسكال عليه. لا بل إنَّه قد خلَّف فيهما أثرًا طيِّبًا يومَ اصطحبتِه إلى المنزل. (بحثت أندريه بعينيْها عن نظرتي) كلّ ما في الأمر أنَّ أمّي ـ وأنا أتفهَّمها ـ لا تعرف باسكال، لذا هي تتساءل عمَّا إذا كانت مقاصده جادَّة.

سألتها في رجاء:

ـ ولن تعارض الزواج؟

ـ لا، لن تعارضه.

قلتُ:

ـ وهذا هو الأهمّ. ألستِ سعيدة؟

سحبت أندريه نَفَسًا من سيجارتها.

ـ لا إمكان للزّواج قبل سنتيْن أو ثلاث...

ـ أعلم.

ـ أمّي تطالب بأن نعلن خطوبتَنا رسميًّا، وإلّا منعتني من رؤية باسكال؛ سوف ترسلني إلى إنجلترا، لتقطع بيننا الجسور.

ـ ما عليكما إلّا أن تعلنا الخطوبة إذن، وهذا كلّ ما في الأمر. (واصلتُ في حماسة) صحيح أنّك لم تناقشي الأمر قطّ مع باسكال، لكن لا أظنّكِ تشكّين في أنّه قد يتركك تبتعدين عنه سنتيْن!

قالت أندريه بصوتٍ مضطرب:

ـ لا يسعني أن أجبره على خطبتي! لقد طلب منّي أن أتحلّى بالصَّبر، قال لي إنّه يحتاج وقتًا ليتبصَّر وتتَّضح عنده الرُّؤية. لن ألقي بنفسي عليه، صائحةً «هيًّا، لنعلن الخطبة!»

ـ لن تلقي بنفسكِ عليه؛ لكنّك ستشرحين له الوضع.

ـ هذا يعني أن أضعه في مواجهة الجدار.

ـ هي ليست غلطتك! لا تستطيعين غير ذلك.

وما زالت أندريه تقاوم حتَّى أقنعتُها أخيرًا بضرورة الحديث إلى باسكال. لكنَّها رفضت إطلاعه على المستجدَّات في رسالة؛ بل أخبرت والدتها بأنَّها ستناقش الأمر معه حال العودة إلى الدِّراسة. وقد وافقت مدام غالار على الأمر. لا بل صارت بسّامةً خلال الأيَّام التي تلت ذلك. لا بدَّ أنَّها تقول في نفسها «ها بنتان قد أدخلناهما إلى القالب، وارتحنا!» حتَّى إنَّها صارت تبدي لي شيئًا من اللُّطف. على أنِّي في كثير من الأحيان، حين كانت ترتِّب وسائد أندريه، أو تساعدها في ارتداءِ قميصِ قراءة[1]، يلمع في عينيْها شيءٌ يذكِّرني بصورتها أيَّام كانت صبيَّة.

حكت أندريه لباسكال، في نبرةٍ لعوبٍ، كيف أذت نفسَها؛ فوصَلتها منه رسالتان قلقتان. قال إنَّها تحتاج إلى شخصٍ عاقل يراقبُها؛ وقال أشياء أخرى لم تخبرني بها، لكنَّني فهمت أنَّها لم تَعُد تشكّ في مشاعره تجاهها. ثمَّ استعادت، بفضل الرّاحة والنّوم، ألوانَ العافية؛ حتَّى إنَّها سمنت بعض سِمن: لم أرَها قطُّ مشرقةً بمثل ذاك القدْر من الإشراق الذي كانت عليه يومَ أُذن لها أخيرًا في مغادرة السّرير.

كانت تعرجُ قليلًا، وتمشي بصعوبة. وأعارنا السيِّد غالار سيارته السيتروين ليومٍ كامل. نادرًا ما كنت أصعد السيَّارة، ولم أصعدها قطُّ

(1) كان النّساء يرتدين قميصًا خاصًّا بالقراءة، يساعدهنّ على تثبيت الكتاب وهنّ على السّرير.

بغرض المتعةِ خالصةً. لذا، رقص قلبي طربًا حين جلستُ بجانب أندريه، وانطلقت السيَّارة مسرعةً على الجادة، وجميع النوافذ مفتوحة. سرنا، عبر الغابة اللانديَّة، على طريقٍ مستقيمةٍ طويلة تمضي بين أشجار الصنوبر، صوبَ السماء. وكانت أندريه تقود بسرعةٍ كبيرة؛ لامسَت إبرةُ العدَّاد 80 كم/ساعة! وعلى الرَّغم من كفاءتها، إلَّا أنَّني كنتُ أشعر بشيءٍ من القلق.

قلتُ:

ـ لن تتسبَّبي في موتنا، أليس كذلك؟

ابتسمتْ أندريه في سعادة:

ـ بالتَّأكيد، لا! الآن ما عدتُ أريد البتَّة أن أموت.

ـ وقبل الآن، أكُنتِ تودِّين؟

ـ أوه، نعم! كلّ ليلة، عندما كنت أضع رأسي على المخدَّة، كنت أتمنَّى ألَّا أستيقظ. (أضافت في بهجةٍ) أمَّا الآن، فأدعو الربّ أن يبقيني على قيد الحياة.

غادرنا الطريق السريعة، وتجوَّلنا رويدًا حول البرك الرَّاكدة بين نبات الخلنج. تناولنا الغداء على المحيط في فندقٍ خالٍ؛ انتهى الموسم، فهُجرت الشواطئُ، وأُغلقت الفيلات. في مدينة بايون، اشترينا للتَّوأمتيْن قطع نوغا متعدِّدة الألوان. أكلنا قطعةً منها بينما نذرع الهوينا ديرَ الكاتدرائيَّة. وقد استندت أندريه إلى كتفي. وكنَّا نتحدَّث عن أديرة إسبانيا وإيطاليا التي سنزورها يومًا ما من الأيَّام،

وعن بلدانٍ أخرى بعيدة، نذهب إليها في رحلاتٍ كبرى. ولمَّا عدنا إلى السيَّارة، أشرتُ إلى القدم المضمّدة قائلةً:

ـ لن أدرك أبدًا كيف واتتك كلّ تلك الشجاعة!

ـ كنتِ لتفعلي نفس فعلي لو أنَّكِ شعرتِ بنفسكِ، مثلي، مطارَدةً من كلّ جانب.

لمسَتْ صدغها:

ـ انتهى بي المطاف إلى المعاناة من صُداعٍ لا يُطاق.

ـ والآن، ما عدتِ تشعرين بالصُّداع؟

ـ أقلُّ بكثيرٍ من ذي قبل. أعترف أنَّني، إذ كنت أجد صعوبةً في النّوم ليلًا، قد أفرطت في تناول الماكسيتون والكولا.

ـ لن ترجعي إلى هذه العادات؟

ـ كلَّا. في بداية العام الدراسي، سيكون عليَّ قضاء أسبوعيْن مرهقيْن، حتَّى زفاف مالو. لكنّي الآن قد استجمعتُ قواي.

عبر دربٍ صغير يسير على امتداد نهر الأدور، بلغنا الغابة. ولم يفت مدام غالار تكليف أندريه بمهمَّة: كان ينبغي أن تقصد فلَّاحةً شابَّة تنتظر مولودًا، فتسلّمها كسوةً لمولودها حاكتها مدام ريفيير دو بونوي. أوقفت أندريه السيَّارة أمام منزلٍ لانديٍّ جميل، في وسط فُرجةٍ محاطةٍ بأشجار الصنوبر. وكنت أنا معتادةً على مزارع ساديرناك، وأكوام السماد، وجداول الرّوث، ففاجأتني أناقة هذه

المزرعة الضائعة وسط الغابة. قدَّمَت لنا الشابةُ نبيذًا ورديًّا يصنعه حموها بنفسه، وفتحَت خزانة ملابسها لتُبهرنا بملاءاتها المطرَّزة: كانت رائحتها تعبق بعطر الخزامى والحندقوق. طفلٌ رضيعٌ في شهره العاشر يضحك في مهده، وأندريه تلاطفه بقلائدها. كانت تحبّ الأطفالَ أشدّ الحبِّ.

قالت:

ـ إنَّه يَقظٌ قياسًا إلى عمره!

في فمها، تفقد العبارات المستهلكة ابتذالها، لفرط ما تكون صادقةً نبرةُ صوتها وابتسامةُ عينيْها.

قالت الشّابَّةُ بمرحٍ وهي تضع يدها على بطنها:

ـ وهذا أيضًا ليس راقدًا.

كانت سوداء الشّعر، كامدة البشرة، مثل أندريه. لديْهما القوام نفسه: ساقان قصيرتان قليلًا، ولكنْ قدٌّ رشيقٌ، وإن كانت في شهورٍ متقدِّمة من حملها. قلت في نفسي: «عندما تحبل أندريه سيكون شكلها هكذا تمامًا». لأوَّل مرَّةٍ، أتخيَّل أندريه زوجةً وأمًّا، دون أن أشعر بانزعاجٍ. ستكون محاطةً بمثل هذا الأثاث البرَّاق الجميل. وسيشعُر بالرَّاحة كلّ من يحلّ ببيتها. لكنَّها لن تقضي ساعاتٍ في صقل نحاسِها أو إغلاق برطمانات المربَّى بورق البرشمان، وإنَّما ستعزف على الكمان، وسوف تكتبُ، أنا مقتنعةٌ بيني وبين نفسي أنَّها ستؤلِّف كتبًا؛ لطالما أحبَّت الكتبَ والكتابة. قلت لنفسي «كم

ستناسبُها السَّعادةُ!» بينما هي تتحدَّث مع الشابَّة عن الطفل الذي يوشك أن يولد، وأخيه الذي بدأت أسنانه تنمو.

ولمَّا توقَّفت السيَّارةُ بعد ساعةٍ أمام حُزمِ أزهار الزينيا، قلتُ:

ـ كان يومًا جميلًا!

قالت أندريه:

ـ نعم.

وكنت على يقينٍ من أنَّها هي أيضًا قد فكَّرت في المستقبل.

* * *

عاد آل غالار إلى باريس قبلي، بسبب زواج مالو. وما إن عدتُ حتَّى اتَّصلتُ بأندريه وضربنا موعدًا في اليوم التالي. كانت تبدو مستعجلَةً إغلاقَ الخطّ، ولم أكن أنا أحبُّ أن أتحدَّث إليها من دون أن أنظر في وجهها. لم أسألها أيَّ سؤالٍ. انتظرتها في حدائق الشانزليزيه، مقابل تمثال ألفونس دوديه. وصلت متأخِّرةً بعض الشّيء، وعلى الفور أدركت أنَّ شيئًا ما ليس على ما لا يرام. جلسَتْ بجانبي من دون حتَّى أن تحاول الابتسام لي.

سألتُها في ضيق:

ـ ألستِ على ما يرام؟

قالت:

ـ لا. (وأضافت بصوتٍ لا رنَّة فيه) باسكال لا يريد.

ـ لا يريد ماذا؟

ـ لا يريد الخطوبة. لا يريدها الآن.

ـ وإذن؟

ـ وإذن، أمّي سترسلني إلى كامبريدج مباشرةً بعد زفاف مالو.

قلتُ:

ـ ولكنْ هذا غير معقول! مستحيل! باسكال لا يُمكن أن يتركك تذهبين.

قالت أندريه بصوتها الخالي من كلّ تعبير:

ـ يقول إنَّنا سنتراسَل، وإنَّه سيحاول القدوم مرَّةً، وأنَّ عامين ليسا بالفترة الطَّويلة جدًّا.

كانت تبدو كأنَّما تتلو تعاليمَ مسيحيَّةً لا تؤمن بها.

قلتُ:

ـ ولكنْ لماذا؟

عادةً، حين تنقل إليَّ أندريه حديثًا، فإنَّها تفعل ذلك بوضوحٍ، حتَّى إنَّه يخيَّل إليَّ أنَّني سمعته بأذنيّ. لكنَّها هذه المرَّة، كانت تحكي لي بصوتٍ كئيبٍ حكايةً مبهمة. بدا على باسكال الفرح لرؤيتها، وقال لها إنَّه يحبُّها، ولكنْ ما إن ذكرت كلمة الخطوبة حتّى انقلب وجهه. كان جوابه سريعًا قاطعًا: لا! أبدًا لن يَقبل والدُه أن يَخطبَ وهو في هذه السنّ الصَّغيرة جدًّا. بعد كلِّ التضحيات التي قدَّمها السيِّد بلوندل لباسكال، من حقِّه أن يأملَ في ابنه تكريس نفسه جسدًا وعقلًا لتحضير امتحاناته؛ إنَّه يرى العلاقة العاطفيَّة

بمثابة تبديدٍ للجهد. كنت على علمٍ بمدى تقدير باسكال لوالده، وأتفهَّم أن يكون ردُّ فعله الأوَّلُ الخشيةَ من إيذائه. لكنْ لمّا عرف أنَّ السيِّدة غالار لن تنصاعَ ولن تغيِّرَ قرارها، كيف لم يتصرَّف على نحوٍ آخر؟

ـ هل أدرَك حجمَ الشّقاء الذي تسبِّبه لكِ فكرة الرحيل؟

ـ لا أدري.

ـ هل بيَّنتِ له ذلك؟

ـ قليلًا.

ـ كان يجب أن تُصرّي. أنا متأكِّدةٌ من أنَّكِ لم تناقشيه في الأمر كما ينبغي.

قالت أندريه:

ـ لقد بدا كالطَّريد. أعرف شعورَ الطَّريد!

كان صوتها يرتعش، وأدركتُ أنَّها بالكاد استمعت إلى حجج باسكال، ولم تحاول تمحيصها.

قلتُ:

ـ ما يزال ثمَّة وقتٌ للنّضال.

ـ وهل عليَّ أن أقضي حياتي أناضلُ ضدّ من أحبُّهم؟

كانت تتحدَّث بحدَّةٍ، حتَّى إنَّني لم ألحَّ عليها في الحديث.

قلتُ:

ـ ماذا لو شرح باسكال أسبابَهُ بنفسه لأمّك؟

ـ لقد اقترحتُ على أمّي ذلك. قالت إنَّ هذا غير كافٍ، ولو أنَّ باسكال كان ينوي الزواج منّي، فسوف يقدِّمني إلى عائلته. لكنْ ما دام يرفض ذلك، فليس لنا إلّا أن نقطع. لقد قالت أمّي جملةً عجيبة. (شردت لفترةٍ حالمةً، ثمَّ أضافت) قالت لي: «أنا أعرفُك حقَّ المعرفة. أنتِ ابنتي، قطعة من لحمي. أنتِ لستِ قويَّةً بما يكفي لأترككِ عرضةً للإغراءات؛ إن استسلمْتِ للغواية، فأنا من يحقُّ أن يقع عليه وزرُ خطيئتك».

سألتني بنظرتها كما لو أنَّها تأمل لديَّ العونَ في فهم المعنى الخفيّ لتلك الكلمات. لكنّي، في الوقت الراهن، لستُ أعبأ بدراما مدام غالار. نفد صبري من انصياع أندريه.

قلتُ:

ـ فإن رفضتِ السّفر؟

ـ أرفُض؟ ماذا تعنين؟

ـ لن يُركبوك في الباخرة بالقوَّة.

قالت أندريه:

ـ بوسعي أن أحبس نفسي في غرفتي وأضرب عن الطعام.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، ستذهب أمّي لتوضّح الأمور مع والد باسكال... (أخفت وجهها بين يديْها) لا أريد أن أفكّر في أمّي كعدوّ! ما أفظعه من أمر!

قلتُ في حزم:

ـ سأتحدَّث إلى باسكال. أنا متأكِّدة من أنَّكِ لم تتحدَّثي معه كما ينبغي.

ـ لن تحصلي منه على شيء.

ـ دعيني أحاول.

ـ حاولي، لكنَّك لن تحصلي على شيء.

نظرَت أندريه بثباتٍ إلى تمثال ألفونس دوديه، لكنَّ عينيْها كانتا تحدِّقان في شيءٍ آخر غير هذا الرخام المتبجِّح.

قالت:

ـ إنَّ الربّ ضدِّي.

رجَّفني تجديفها، كما لو كنتُ مؤمنةً.

قلت:

ـ سيقول لكِ باسكال إنَّك تجدِّفين. إن كان الربُّ موجودًا، فهو ليس ضدّ أيٍّ كان.

ـ وما أدرانا؟ من ذا الذي يحيط علمًا بماهيَّة الربّ؟

هزَّت كتفيْها، وأضافت:

ـ أوه! ربَّما يخصُّني بموضعٍ طيِّبٍ في سمائه. أمَّا هنا، على هذه الأرض، فهو ضدِّي. (أضافت بنبرةٍ متأثِّرة) ومع ذلك، ثمَّة أناس صعدوا إلى سمائه، وكانوا سعداء هنا في هذا العالم! (وفجأةً

أجهشَت) لا أريد أن أرحل! لا أقوى على البعد عاميْن، عاميْن بعيدًا عن باسكال، بعيدًا عن أمّي، بعيدًا عنكِ؛ أبدًا لن أقوى على التحمُّل!

حتَّى حين فُصل بينها وبين برنار، لم أرَ قطُّ أندريه تبكي. وددتُ لو أُمسك بيدها، أن أقوم تجاهها بلفتةٍ بسيطة؛ لكنَّ إسارَ ماضينا القاسي كبَّلني، فلم أتحرَّك. خطرت ببالي تانك الساعتان اللَّتان قضَتهما على سطح قلعة بيتاري، تتساءلُ عمَّا إذا كان يجدر بها أن ترمي بنفسها. إنَّ دواخلها الآن تلفُّها تلك الظلمةُ نفسها التي كانت تلفُّها آنذاك.

قلت:

ـ أندريه، لن تغادري؛ من المستحيل ألّا أقنع باسكال.

مسحت عينيْها، ونظرت إلى ساعتها، ثمَّ قامت واقفةً، وكرَّرت:

ـ لن تحصلي على شيء.

أمَّا أنا، فكنتُ على يقينٍ من العكس. وحين اتَّصلت بباسكال مساءً، كان صوته ودودًا ومرحًا. كان يحبّ أندريه، وينصتُ إلى صوت العقل. وما فشلُ أندريه في إقناعه إلَّا نتيجةٌ لارتضائها دورَ المهزومة؛ أمَّا أنا، فأنشُد الانتصار، وسأحصدُه.

كان باسكال ينتظرني على شرفة مقهى لوكسمبورغ؛ دائمًا ما يصل أوَّلًا إلى المواعيد. جلستُ، وعلّقنا بصوتٍ عالٍ على الطّقس، متَّفقيْن على أنَّ اليومَ كان جميلًا جدًّا. حول البِركة حيث تسبح مجسَّماتُ مراكب شراعيَّة قزمة، بدت أحواض الزهور كأنَّما قد

طُرِّزت غُرزةً غُرزةً. هيأتُها المنتظمة، وصفاء السماء، كلّ شيءٍ يؤكّدُ يقيني: بالحسّ السليم، بالحقيقة سينطقُ فمي. ولن يكون لباسكال إلّا الاستسلام.

بادرتُ إلى الهجوم:

ـ التقيت بأندريه ظهيرة أمس.

نظر إليَّ باسكال نظرةً متفهِّمة:

ـ أنا أيضًا أردتُ لقاءكِ والحديثَ إليكِ في شأن أندريه. سيلفي، ينبغي أن تساعديني.

تلك هي الكلمات نفسُها التي قالتها لي السيِّدة غالار فيما مضى.

قلتُ:

ـ كلّا! لن أساعدك في إقناع أندريه بالسَّفر إلى إنجلترا. لا ينبغي أن تغادر! هي لم تُخبرك بمدى رعبها من هذه الفكرة، لكنَّني أنا أعرف.

قال باسكال:

ـ بلى، لقد أخبرتني، ولهذا أطلب منكِ مساعدتي؛ ينبغي أن تفهم أن الانفصال مدَّة عامَيْن ليس مأساةً.

قلت:

ـ هو بالنِّسبة إليها مأساة. ليس أنتَ فقط من تفارقُه، بل حياتها كلّها. لم أرها قطُّ بهذا القدْر من التعاسة (أضفتُ في غضبٍ) لا يمكنك أن تفعل بها هذا!

قال باسكال:

ـ أنتِ تعرفين أندريه؛ وتعرفين أنَّها دائمًا ما تأخذ الأمور في البداية بجدِّيَّةٍ أكثر من اللَّازم؛ ثمَّ ما تلبث أن تستعيد توازنها. إن غادَرت أندريه برضاها، واثقةً من حبِّي، واثقةً في المستقبل، فإنَّ انفصالنا المؤقَّت لن يكون فظيعًا!

ـ كيف تريد لها أن تثق فيك، وأنت تتخلَّى عنها وتتركها ترحل!

نظرتُ إليه في جَزَع، وقلتُ: «في المحصِّلة، الأمر يتوقَّف عليك، أنت من يستطيع أن يرفعها إلى قمم السَّعادة، أو ينزلها إلى مهاوي الشَّقاء، وقد اخترتَ شقاءَها!

قال باسكال:

ـ آه! لشدّ ما تتقنين التَّبسيطَ.

حمل طوقًا ألقته بين ساقيْه فتاةٌ صغيرة للتوّ، ورماه إليها بحركةٍ ماهرة. أضاف:

ـ إنَّ السعادة والشَّقاء هما في المقام الأوَّل مسألةُ استعدادٍ داخليّ.

قلت:

ـ بحسب استعدادات أندريه الحالية، فإنَّها ستنفق أيَّامَها في البكاء. (أضفت مهتاجةً) إنَّ قلبها ليس بعقلانيَّة قلبِك أنت! هي حين تحبُّ أحدًا فإنّها تشعر بالحاجة إلى رؤيته.

قال باسكال:

ـ لِمَ ينبغي أن ننفيَ العقلانيَّة بذريعة الحبّ؟ أنا أكره هذه الأحكام الرومانسيَّة. (هزَّ كتفيْه) إنَّ الحضور، بالمعنى الماديّ للكلمة، ليس شديد الأهمِّيَّة. أو ربَّما نحن نبالغ في أهمِّيَّته.

ـ قد تكون أندريه رومانسيَّةً، وقد تكون مخطئةً، لكنْ إن كنتَ تحبُّها، فينبغي أن تحاول فهمها. لن تغيِّرها بالحجج المنطقيَّة.

أخذتُ أحدِّق بقلقٍ في أحواض الزهور، حيث زهور المريميَّة ورقيب الشّمس، وقلت لنفسي فجأةً: «ليس بالحجج المنطقيَّة سأغيِّر باسكال».

سألته:

ـ لماذا أنت خائفٌ جدًّا من الحديث إلى والدك؟

قال:

ـ إنَّه ليس خوفًا.

ـ وماذا تسمِّيه؟

ـ لقد شرحتُ الأمرَ لأندريه.

ـ وهي لم تفهم أيّ شيء.

قال باسكال:

ـ لكي تفهمي ينبغي أن تعرفي والدي والعلاقة التي تربطني وإيَّاه. (نظر إليَّ في لومٍ) سيلفي، تعرفين أنَّني أحبُّ أندريه، أليس كذلك؟

قلت وقد نفد صبري:

ـ ما أعرفُه هو أنَّك تحبِطُها، لكي تُجنِّب والدك أدنى إزعاج! والحالُ أنَّ والدك لا يشكّ في أنَّك ستتزوَّج يومًا!

ـ سيجد خطوبتي، وأنا في هذه السنّ، غير معقولة؛ وسيحكم على أندريه حكمًا سيِّئًا؛ وأفقدُ كلَّ التقدير الذي يكنُّه لي. (مجدِّدًا بحثَ عن عينيَّ بنظرته) صدِّقيني يا سيلفي! أنا أحبُّ أندريه. ولكي أرفض ما تطلبه منِّي، لا بدَّ أنَّ لي أسبابًا قاهرة.

قلت: لستُ أرى هذه الأسباب.

روّى باسكال باحثًا عن كلماته، وندَّت عنه حركةٌ تشي بانعدام الحيلة، قال بصوتٍ يغلب عليه التأثُّر:

ـ «والدي شيخٌ، إنَّه متعب، ما أحزنَ أن يكبرَ المرءُ ويشيخ!»

ـ على الأقل، حاول أن تشرح له الوضع! أشعِرهُ بمعاناة أندريه، اجعله يُدرك أنَّها لن تتحمَّل هذا المنفى.

قال باسكال:

ـ سيقول إنَّ الإنسانَ قادرٌ على تحمُّل كلّ شيء. وكما تعلمين، هو نفسه تحمَّل الكثير. أنا على يقين من أنَّه سيرى هذا الفراقَ أمرًا محمودًا.

قلتُ:

ـ لكنْ لماذا؟

بدأتُ أشعر في باسكال بتعنُّتٍ أفزعني. مع أنَّه لم يكن فوق رأسيْنا سوى سماءٍ واحدة، وحقيقةٍ واحدة. ثمَّ أُلهِمتُ فكرةً:

ـ هل تحدَّثت إلى أختك؟

ـ أختي؟ لا. لماذا سأتحدَّث إليها؟

ـ تحدَّث إليها. قد تجد هي طريقةً تبيِّن بها الأمور لوالدك.

صمتَ باسكال برهةً، ثمَّ قال:

ـ خطوبتي ستصدم أختي أكثر ممَّا ستصدم أبي.

استحضرتُ إيمَّا، جبهتَها العريضة، فستانَها الكحليّ بياقته البيضاء، ونظرتها المستحوذة إلى باسكال حين تتحدَّث إليه. طبعًا، إيمَّا ليست حليفًا.

قلتُ:

ـ آه! أنت إذن خائفٌ من إيمَّا؟

قال باسكال:

ـ لماذا لا تريدين أن تفهمي؟ أنا لا أرغب في أن أؤذي والدي أو إيمَّا. أظنُّه أمرًا منطقيًّا بعد كلِّ ما بذلاه لأجلي.

ـ لا تقل إنَّ إيمَّا ما تزال تعوِّل على التحاقك بصفوف الكهانة؟

ـ لا. (تردّد) ليس مبهجًا أن تكون مُسنًّا؛ ولا أن تعيش مع رجلٍ مسنّ. حين سأرحل، سيصير المنزل حزينًا بالنِّسبة إلى أختي.

بلى، إنِّي لأتفهَّم وضع إيمَّا، بأفضلَ ممَّا أتفهَّم وضع السيِّد بلوندل. وأتساءل عمَّا إذا كانت هي، في الواقع، السَّبب الرَّئيسيّ الذي يفرض على باسكال إخفاء حبّه.

قلتُ:

ـ عليهما أن يقتنعا بأنَّك لا بدَّ أن تتركهما يومًا من الأيَّام!

قال:

ـ لستُ أطلب من أندريه إلَّا أن تصبر عاميْن، عاميْن لا غير. إذَّاك سيرى والدي أنَّ من المنطقيّ أن أفكِّر في الزّواج؛ وتكون إيمًا قد تآلفت بعض الشَّيء مع الفكرة. أمَّا اليوم، فسيكون الإقدام على هذه الخطوة، فاجعةً.

ـ بالنِّسبة إلى أندريه، هذا السَّفر هو الفاجعة. إن كان لا بدَّ لشخصٍ ما من أن يعاني، فلمَ ينبغي أن تكون هي بالذَّات؟

قال باسكال في شيءٍ من الانزعاج:

ـ أنا وأندريه، أمامنا الحياةُ، واليقينُ بأنَّنا لاحقًا سنكون سعداء؛ بوسعنا إذن أن نضحِّيَ للحظةٍ في سبيل أولئك الذين لا يملكون شيئًا.

ـ سوف تعاني هي أكثر ممَّا ستعاني أنت. (نظرتُ إلى باسكال بعدائيَّة) إنَّها شابَّة، نعم، وهذا يعني أنَّها نابضةٌ بالحياةِ، وتريد أن تعيش...

هزَّ باسكال رأسه:

ـ وهذا بلا شكّ سببٌ إضافيٌّ ليكون انفصالُنا محمودًا.

أصابتني الحيْرة.

قلت: لا أفهم.

أجابني بنبرةٍ شبيهة بتلك التي كان يحدِّثني بها، فيما مضى، الأب دومينيك، أيَّامَ كنت أعترف له:

ـ سيلفي، في بعض الجوانب، أنتِ تُعتبرين متأخِّرةً جدًّا قياسًا إلى عمركِ. ثمَّ، إنَّكِ لستِ مؤمنةً، لذا فإنَّ بعض المسائل تفلت منكِ.

ـ مثلًا؟

ـ ليس من اليسير على المسيحيِّين تدبُّر العلاقة الحميمة أثناء فترة الخطوبة؛ صعبٌ أن تعيش بجانب امرأةٍ من لحمٍ ودم. حتى لو لم نستسلم للغواية، فإنَّها تظلُّ حاضرةً، تحاصرنا باستمرار: وهذا النّوع من الهَوَس هو في حدِّ ذاته خطيئة.

شعرت بنفسي أحمرُّ، لم أتوقَّع هذه الحجَّة، كنتُ أنفر منها.

قلت:

ـ بما أنَّ أندريه مستعدَّة لأن تتحمَّل هذه المخاطرة، فليس من الضروريّ أن تقرِّر أنت بدلًا منها.

ـ بلى، إنَّها مسؤوليَّتي، ينبغي أن أدافع عنها ضدّ نفسها. إنَّ أندريه كريمةٌ جدًّا، لدرجة أنَّها قد تسلِّمُ نفسَها بباعثٍ من الحبّ.

ـ مسكينةٌ يا أندريه! الجميع يأخذ على عاتقه خلاصها. بينما هي لا تطلب إلَّا قليلًا من السّعادة على هذه الأرض!

قال باسكال:

ـ إنَّ الشعور بالذَّنب لدى أندريه أقوى منه لديَّ. مرَّةً، رأيتُها تقضم نفسها ندمًا بسبب أمرٍ طفوليٍّ تافه. إن وقعنا في المحظور، بشكلٍ أو بآخر، فإنَّها لن تغفر لنفسها.

شعرت بأنّني بدأت أخسر المباراة. ومن قلقي استمددت القوّةَ، قلت:

ـ أصغِ إليَّ يا باسكال. لقد قضيتُ شهرًا مع أندريه؛ إنّها مستنزَفةٌ. صحيحٌ أنّها جسديًّا قد تعافت قليلًا، لكنّها ستفقد مجدَّدًا الشهيّة والنوم، وتمرض مرّةً أخرى. أمّا معنويًّا، فإنّها مرهقة: هل لك أن تتخيّل الوضع الذي أوصلها إلى شجّ قدمها بفأس؟

دفعةً واحدة، لخّصتُ له حياة أندريه طيلة السنوات الخمس الماضية: حسرَتُها بعد انفصالها عن برنار، خيبة أملها حين اكتشفت حقيقةَ العالم الذي تعيش فيه، نضالها ضدّ والدتها حتّى تنتزع حقّ التصرُّف وفقًا لقلبها ووفقا لضميرها؛ وكلّ انتصاراتها تلك سمَّمَها الندَمُ، وفي أدنى رغباتها كانت تشتبه في وجود خطيئة. وبقدر ما كنت أتقدَّم في الحديث، بقدر ما كنت أبصر الهاويات التي لم تكشفها لي أندريه قطُّ، لكنْ استشففتُها من كلماتها. كنت خائفةً، وخلت أنَّ باسكال أيضًا لا بدَّ أن يداخِلَه الفزع.

قلت:

ـ كل ليلةٍ، وطيلة السنوات الخمس الماضية، كانت تطلب الموتَ. وذاك اليوم بلغت من اليأس درجةً، أن قالت لي: «إنَّ الربّ ضدّي!»

هزَّ باسكال رأسه. ملامح وجهه لم يطلها تغيير.

قال:

ـ أنا أعرف أندريه قدر معرفتك بها، وربَّما أكثر، ما دمت أستطيع أن أسايرها في دروبٍ لا تطرقينها أنتِ. صحيحٌ أنَّ المطلوب منها كثيرٌ، لكنْ ما لا تعرفينه هو أنَّ الربّ يوزِّع من النّعم قدر ما يفرضه من المحن. إنَّ لأندريه من المباهج والعزاءات ما لا يخطر لكِ على بال.

لقد هُزمتُ. تركتُ باسكال فجأةً، وانطلقتُ تحت السماء الكاذبة. وفي طريقي، خطرت ببالي حججٌ أخرى، لكنَّها ما كانت لتنفع. يا للعجب! لقد تناقشنا مئات المرَّات، وكان لا بدَّ لكلِّ نقاشٍ نخوضه من مآل، لا بدَّ أن يقنع أحدنا الآخر. واليومَ، ها نحن نتناقشُ، وعلى المحكّ شيءٌ واقعيٌّ وحقيقيّ، ومع ذلك، نرى كلّ حججنا المنطقيَّة تتكسَّر على صخرة أحكامنا العنيدة. وطيلة الأيَّام التالية، ظللت أتساءل عن الدَّوافع الفعليَّة التي خضع لها باسكال. أوامر والده؟ أم ترهيبُ أخته إيمَّا؟ أم تراه إيمانه بقصص الغواية والخطيئة تلك؟ أم أنَّ كلّ ذلك ليس إلَّا ذريعة؟ هل كان يتهيَّب الانخراط مبكّرًا في حياة الكبار؟ لطالما قال إنَّه يتطلَّع دائمًا إلى المستقبل بتوجُّسٍ. آه! ما كانت لتحدث أيّ مشكلة لو أنَّ مدام غالار لم تشترط هذه الخطوبة؛ كان باسكال وأندريه سيواصلان المواعدة بهدوءٍ مدَّة سنتيْن. فيقتنع بجدِّيَّة حبّهما، ويأنس إلى فكرة أن يصير رجلًا. على أنّي، بالرَّغم من كلِّ هذه الاعتبارات ما أزال غاضبةً من تصلُّبه. كنت غاضبةً من مدام غالار ومن باسكال، ومن نفسي أيضًا، لأنَّ الكثير من الأمور عند أندريه ما تزال غامضةً بالنِّسبة إليّ، وبالتَّالي لا أستطيع أن أكون لها خيرَ عوْن.

مرَّت ثلاثة أيَّام قبل أن تجد أندريه فرصةً أخرى لرؤيتي؛ ضربَت لي موعدًا في صالون الشّاي «الرّبيع». حولي نساءٌ متعطِّراتٌ، يأكلن الكعك ويتحدَّثن في تكاليف الحياة. منذ أوَّل يومٍ من حياتها، كانت أندريه منذورةً لأن تشبه هؤلاء النِّسوة. لكنَّها لم تكن تشبههنّ. كنتُ أتساءل: أيُّ كلماتٍ سأقول لها: لم أجد من الكلمات حتَّى ما أعزِّي به نفسي أنا. اقتربت أندريه بخطوٍ حثيث:

ـ تأخَّرتُ!

ـ لا يهمّ.

كثيرًا ما كانت تصل متأخِّرةً، ليس لانعدام إحساسها بالواجب، وإنَّما لأنَّها كانت موزَّعةً بين واجباتٍ كثيرةٍ متضاربة.

ـ آسفةٌ، لأنَّني ضربتُ لك موعدًا هنا، ولكنِّي لا أملك من الوقت إلَّا قليلًا.

وضعت على الطاولة حقيبتها، ومجموعةً من العيِّنات:

ـ لقد مررتُ أصلًا على أربعة متاجر!

قلت:

ـ يا لها من مهمَّة!

أعرفُ العادةَ. عندما يحتاج آل غالار الصغار معطفًا أو فستانًا، تلفُّ أندريه على المتاجر الكبرى وبعض المحلَّات المتخصِّصة: تأخذ عيِّنات من الأثواب إلى المنزل، وبعد مداولاتٍ أُسريَّة، تختار

السيِّدة غالار منها نسيجًا، آخذةً في ميزان الاعتبار جودتَه وسعره. وهذه المرَّة، يتعلَّق الأمر بزينةِ العرس، فلا مجال للتّساهل.

قلت لها نافدة الصَّبر: والداك لا يعوزهما المالُ، رغم كلّ شيء.

ـ كلَّا، لكنَّهما يظنَّان أنَّ المال لم يوجد لنضيِّعَه.

فكَّرت أنَّ تجنيب أندريه التعب والإزعاج الناجميْن عن هذا التسوُّق المعقَّد، لا يُعتبر تضييعًا للمال. تحت عينيْها، كانت هالاتٌ داكنة، تبرز بفظاظةٍ على بشرتها البيضاء. ومع كلّ ذلك، ولدهشتي، ابتسمَت:

ـ أظنُّ أنَّ التّوأمتيْن ستبدوان ظريفتيْن في هذا الحرير الأزرق.

أمَّنت على كلامها بلامبالاة. قلتُ:

ـ تبدين متعبة.

ـ دائمًا ما تصيبني المتاجرُ الكبرى بالصُّداع، سوف أتناول أسبرين. طلبَتُ كوبَ ماءٍ وشايًا.

ـ يجب أن تزوري طبيبًا. صداع الرّأس يعاودُك كثيرًا.

قالت أندريه، وهي تذيبُ حبَّتيْن في كوب الماء:

ـ أوه! إنَّها الشَّقيقة؛ تأتي وتذهبُ، وقد اعتدتُها.

شربَت المحلول، وابتسمتْ مجدَّدًا. قالت:

ـ لقد أخبرني باسكال عن الحديث الذي دار بينكما. شعر بشيءٍ من الحزن، لأنَّه ظنَّك تحملين عنه حكمًا سيِّئًا جدًّا.

نظرت إليَّ بملامح جادَّة:

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ لا ينبغي لكِ ذلك!

قلت لها:

ـ أنا لا أحمل عنه أيَّ حكمٍ سيِّئ.

لم يكن لديَّ خيار. ما دامت أندريه سترحل، فالأفضل أن ترحل وهي تثق في باسكال.

قالت:

ـ صحيح أنِّي دائمًا ما أضخِّم الأمور. ظننتُ أنَّني لن أوتى القوَّةَ على التحمُّل أبدًا، والحالُ أنَّ المرء دائمًا ما يستطيع التحمّل.

ظلَّت تقبض أصابعها وتبسطها في عصبيَّة، ولكنَّ وجهها كان هادئًا.

أضافت: شقائي كلّه مصدره قلَّة الإيمان. لا أؤمن بما فيه الكفاية. يجب أن أؤمن بأمِّي، وبباسكال، وبالربّ: عندها فقط سأشعر بأنَّهم لا يكرهون بعضهم بعضًا، وأنَّ لا أحد منهم يريد بي أذًى.

كان يبدو أنَّها تتحدَّث إلى نفسها وليس إليَّ؛ وتلك لم تكن عادتها.

قلت:

ـ نعم. تعلمين أنَّ باسكال يحبُّك، وأنَّكما ستتزوَّجان في نهاية المطاف. لذا، فإنَّ السَّنتيْن ليستا بالمدَّة الطَّويلة جدًّا...

قالت:

ـ الأفضل لي أن أغادر. إنَّهم على حقّ، وأنا أعي ذلك جيِّدًا. أعرف حقَّ المعرفة أنَّ الجسدَ خطيئة: ينبغي أن نهرب من الجسد. لنتحلَّ بشجاعة مواجهة الأشياء...

لم أجب بشيء.

سألتها:

ـ ستكونين حرَّةً هناك؟ ستجدين وقتًا لنفسك؟

قالت أندريه:

ـ سأتابع بعض الدروس، وسيكون لديَّ الكثير من الوقت.

رشفت رشفةً من الشاي. وكانت يداها قد هدأتا.

ـ من هذه الناحية، تعتبر الإقامة في إنجلترا فرصةً؛ إن بقيتُ في باريس سوف أعيش حياةً فظيعة. أمَّا في كامبريدج، فسأتنفَّس.

قلت لها:

ـ يجب أن تنامي وتأكلي.

قالت في حيويَّة:

ـ لا تخشَي عليَّ شيئًا؛ سأكون عاقلةً. لكنَّني أريد أن أشتغل. سأقرأ للشُّعراء الإنجليز، ثمَّة شعراء رائعون. وربَّما سعيت إلى ترجمةِ شيءٍ من شعرهم. وقبل هذا وذاك، أرغب في أن أنجز دراسةً عن الرواية الإنجليزيَّة. يبدو لي أنَّ ثمَّة الكثير ليُقال عن الرواية، أشياءَ لم تُقَل من قبل. (ابتسمَت) ما تزال أفكاري مشوَّشةً بعض الشّيء، لكنَّني توصَّلت إلى مجموعةٍ من الأفكار خلال أيَّامنا هذه.

ـ أودّ أن تشاركيني إيَّاها.

أفرغت أندريه كوب الشّاي:

ـ وأنا أريد أن أتحدَّث معكِ فيها. في المرَّة القادمة، سوف أرتِّب لنغنمَ وقتًا أطولَ. آسفة، لأنَّني أزعجتك لأجل خمس دقائق، إنَّما أردت فقط أن أقول لكِ لا تقلقي بشأني بعد الآن. لقد أدركتُ أنَّ الأشياء هي على النحو الذي ينبغي أن تكون عليه.

خرجتُ معها من صالة الشّاي، وفارقتُها عند منضدة السّكاكر. ابتسمت لي ابتسامةً عريضةً مشجِّعة:

ـ سوف أهاتفك. إلى اللِّقاء!

* * *

بقيَّة الأحداث عرفتها من فم باسكال. جعلته يحكي لي المشهد، مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، وبالتَّشديد على كلِّ التَّفاصيل، حتَّى إنَّ ذاكرتي بالكاد تميِّزه عن ذكرياتي الشَّخصيَّة. لقد حدث الأمر يوميْن بعد لقائنا، وتحديدًا نهاية الظَّهيرة. كان السيِّد بلوندِل يصحِّح واجبات الطَّلبة في مكتبه؛ وإيمَّا تقشّر الخضروات؛ وباسكال لم يَعُد إلى المنزل بعد. رنَّ الجرسُ. مسحت إيمَّا يديْها وذهبت لتفتح الباب. ألفت نفسَها أمام صبيَّةٍ سوداء الشّعر، ترتدي بدلةً رماديَّةً لائقةً، لكنَّها لم تكن تعتمر قبَّعة، وفي تلك الأزمنة، كان يُعتبر ذلك غير لائق.

قالت أندريه:

ـ أودُّ أن أتحدَّث إلى السيِّد بلوندل.

ظنَّتها إيمَّا طالبةً سابقة لوالدها، فأدخلتها عليه المكتبَ. أبصر السيِّد بلوندل، في دهشةٍ، صبيَّةً غريبةً تتقدَّم نحوَه باسطةً يدها.

ـ مرحبًا، سيِّدي. أنا أندريه غالار.

قال وهو يصافحها: اعذريني، لا أتذكَّرك...

جلست ووضعت ساقًا على ساقٍ في لامبالاة:

ـ ألم يُخبرك باسكال عنِّي؟

قال السيِّد بلوندل:

ـ آه! أنت رفيقةٌ لباسكال؟

قالت: لست رفيقةً له.

تفقَّدت المكان حولها:

ـ أليسَ هنا؟

ـ كلَّا...

سألته في قلقٍ:

ـ أين هو؟ هل نام؟

تأمَّلها السيِّد بلوندل بعناية: كان عَظما وجنتيْها ملتهبيْن؛ واضحٌ أنَّها محمومة.

أضاف:

ـ سيعود بعد بُرهة.

قالت أندريه:

ـ لا يهم. أنتَ من أتيت لأتحدَّث إليه.

أخذتها رجفةٌ، قالت بحماسةٍ:

ـ هل تتأمَّلني لترى ما إذا كنت أحمل في وجهي علامة الخطيئة؟ أقسم لك إنَّني لست خاطئةً، لقد قاومت دائمًا، دائمًا.

غمغم السيِّد بلوندل، وقد بدأ يشعر بنفاد الصَّبر:

ـ تبدين فتاةً لطيفةً جدًّا.

وكان علاوةً على كلّ ما سبقَ ثقيلَ السّمع.

قالت:

ـ لستُ قدّيسةً. (مسحت بيدها على جبينها). لستُ قدّيسةً، لكنَّني لن أؤذي باسكال. أتوسَّل إليك؛ لا تُجبرني على الرحيل!

ـ الرَّحيل؟ إلى أين؟

ـ ألا تعرف؟ سوف ترسلني أمّي إلى انجلترا إن أجبرتَني على الرَّحيل.

قال السيِّد بلوندل:

ـ أنا لا أُجبرك على شيء. إنَّه سوء تفاهم.

أراحته الكلمة فكرّر:

ـ إنَّه سوء تفاهم.

قالت أندريه: أعرف كيف أدبِّر بيتًا. لن يعوز باسكال معي شيء. وأنا لستُ اجتماعيَّة. يكفيني القليل من الوقت للتمرُّن على

الكمان، ورؤية سيلفي. لا أطلب أكثر (نظرتْ إلى السيِّد بلوندل في قلق) ألا ترى كلامي معقولًا؟

ـ معقولٌ تمامًا.

ـ لماذا أنت ضدِّي إذن؟

قال السيِّد بلوندل:

ـ صديقتي، أكرِّر لكِ أنَّ في الأمر سوء تفاهم. أنا لست ضدّك.

لم يكن الرَّجل يفهم شيئًا من تلك القصَّة، غير أنَّه مشفقٌ نحو هذه الفتاة ذات الخدَّيْن المحمومَيْن. أراد أن يطمئنها، فتحدَّث بقوَّةٍ حتَّى إنَّ وجه أندريه استرخى.

ـ حقًّا؟

ـ أقسم لكِ.

ـ لن تمنعنا إذن من إنجاب الأطفال؟

ـ بالطبع، لن أفعل.

قالت أندريه:

ـ سبعة أطفال، كثير. سيكون في الأمر بعض الخسارة؛ لكنْ ثلاثة أو أربعة، جيِّد.

قال السيِّد بلوندل: فهل تحكين لي قصَّتك إذن؟

قالت أندريه:

ـ نعم.

روت برهةً، ثمَّ واصلت:

ـ كما ترى، كنتُ قد قلت لنفسي إنَّني يجب أن أتحلَّى بالشَّجاعة، وأرحل؛ وقلت لنفسي إنَّني سأفعل. وإذا بي هذا الصباح، أدرك، حين استيقظتُ، أنَّني عاجزةٌ عن ذلك. لذا، جئتك أسألك الرَّحمة، أن ترحمني...

قال السيِّد بلوندل:

ـ أنا لست عدوّك. احكي لي.

وحكت له، من غير أن يفتقر حكيُها إلى الانسجام.

سمع باسكال صوتها من خلال الباب، فصُدم.

قال موبِّخًا وهو يدلف إلى الغرفة:

ـ أندريه!

لكنَّ والده أشار إليه بإشارةٍ، وقال:

ـ كان للآنسة غالار ما تحدِّثني فيه، وقد سررتُ كثيرًا بالتَّعرُّف إليها. إلَّا أنَّها متعبة، ومحمومة. سوف ترافقها إلى منزل والدتها.

دنا باسكال من أندريه، وأمسك بيدها:

ـ نعم، أنتِ محمومة.

قالت:

ـ لا يهمّ؛ أنا سعيدة جدًّا، والدك لا يبغضني!

داعب باسكال شعر أندريه:

ـ انتظريني. سأطلب تاكسي.

تبعه والده إلى حُجرة الاستقبال، وأخبره تفاصيل زيارة أندريه.

سأله معاتبًا:

ـ لماذا لم تُعلمني؟

قال باسكال:

ـ أخطأتُ في ذلك قطعًا.

شعر فجأةً بشيءٍ يصعد إلى حلقه، شيءٍ لا قِبل له به، شيءٍ عاصف، لا يُطاق. أغمضتْ أندريه عينيْها. وانتظروا السيَّارة صامتيْن. تأبَّط ذراعها لينزلا الدرج. وفي التّاكسي، أراحت رأسها على كتفه.

ـ باسكال، لمَ لم تقبّلني أبدًا؟

قبَّلَها.

تحدَّث باسكال بإيجازٍ مع السيِّدة غالار؛ جلسا معًا عند رأس سرير أندريه.

قالت السيِّدة غالار:

ـ لن تغادري، كلّ شيءٍ على ما يرام.

ابتسمتْ أندريه:

ـ ينبغي أن نطلب شامبانيا.

ثمَّ أخذت في الهَذَيان. وصف لها الطبيب مهدئات. شكّ في التهاب السحايا، أو التهاب الدماغ، لكنَّه لم يقطع في شيء.

وصلتني رسالةٌ كبسولية من عند مدام غالار، تُخبرني فيها أنَّ أندريه ظلَّت تهذي طوال اللّيل. قرَّرَ الأطباءُ ضرورةَ عزلها، ونقلها إلى عيادةٍ في سان جيرمان أون لي، حيث بذلوا كلّ ما في وسعهم لخفض درجة حرارتها. أمضت ثلاثة أيَّامٍ رأسًا لرأس مع ممرِّضة:

ظلَّت تردِّد في هَذَيانها:

ـ أريد باسكال، وسيلفي، وكماني، وشمبانيا.

لم تنزل الحمَّى.

في اللَّيلة الرابعة، سهرت عليها السيِّدة غالار؛ وفي الصباح، وعت بها أندريه.

سألتها:

ـ هل سأموت؟ لا ينبغي أن أموت قبل الزّفاف. ستكون الصغيرتان ظريفتيْن غاية الظرف، في ثوب الحرير الأزرق!

بلغ الوهن بها درجة أنَّها بالكاد كانت تستطيع الكلام. وكرَّرت عدَّة مرَّات: «سأُفسد الحفلة.. أنا أفسد كلّ شيء.. لم أحمل لكم إلَّا المشاكل!»

لاحقًا، شدَّت على يديْ أمّها، وقالت:

ـ لا تحزني. في كلّ الأُسر ثمَّة خسائرُ، أنا الخسارة.

ربَّما قالت أشياءَ أخرى، لكنَّ السيِّدة غالار لم تنقُلها لباسكال. عندما اتَّصلتُ بالعيادة حوالى الساعة العاشرة، قيل لي: «لقد قُضيَ الأمر». ماتت ولم يكن الأطبَّاء قد شخَّصوا بعد حالتها.

رأيت أندريه مرَّةً أخرى في كنيسة العيادة، مستلقيةً وسط أرضيَّةٍ من شموعٍ وزهور. كانت ترتدي قميص نومٍ من تلك القمصان الطَّويلة المصنوعة من القماش الخشن. وكان شعرها قد نما، نازلًا في خيوطٍ قاسية حول وجهها الأصفر الذي نحل لدرجة أنَّني بالكاد استطعت تمييز ملامحها فيه. يداها بأظافرهما الطَّويلة، المشبوكتان حول الصليب، كانتا تبدوان هشَّتيْن، كأنَّهما يدا مومياءٍ تقادم بها العهدُ.

دُفنت في مقبرة بيتاري الصغيرة، بين رفات أسلافها. كانت السيِّدة غالار تنتحب. وقال لها السيِّد غالار: «لم نكن إلَّا أدواتٍ في يد الربّ». وكان القبرُ مغطًّى بالزهور البيضاء.

أدركتُ على نحوٍ مبهمٍ أنَّ أندريه ماتت مختنقةً بذاك البياض. قبل أن أركب في قطاري، وضعتُ على الأكاليل النقيَّة ثلاث ورودٍ حمراء.

من أرشيف كتابات

سيمون دو بوفوار

ومراسلاتها مع زازا

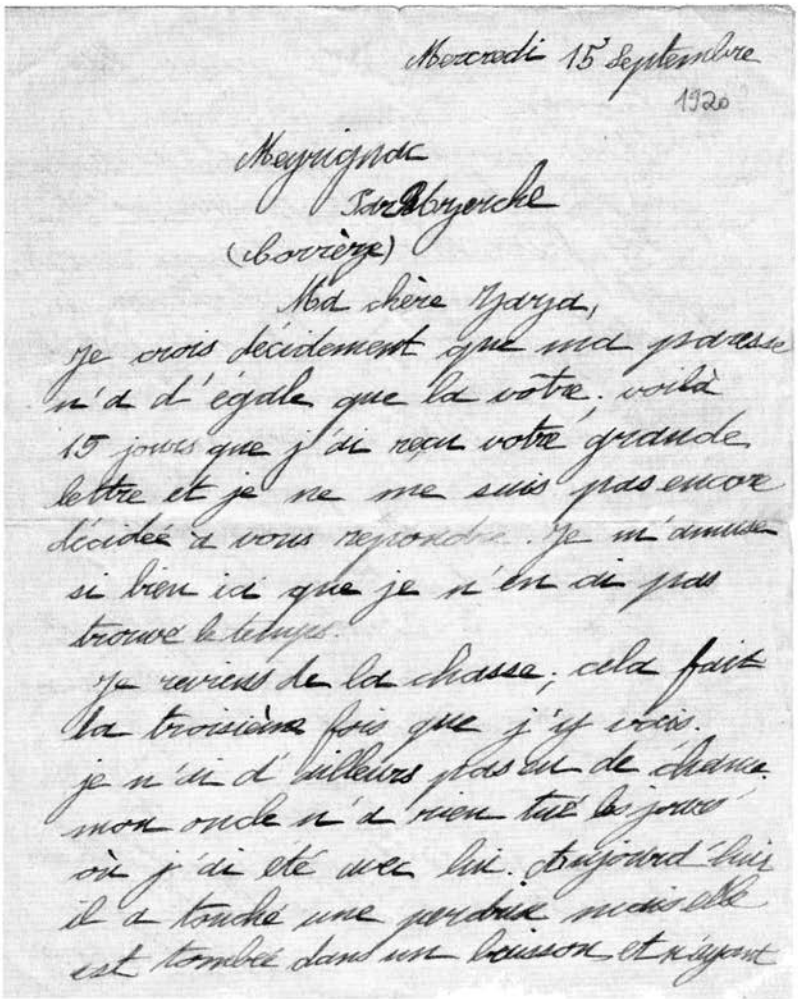

Mercredi 15 Septembre
1920

Meyrignac
par Uzerche
(Corrèze)

Ma chère Zaza,

Je crois décidément que ma paresse n'a d'égale que la vôtre. Voilà 15 jours que j'ai reçu votre grande lettre et je ne me suis pas encore décidée à vous répondre. Je m'amuse si bien ici que je n'en ai pas trouvé le temps.

Je reviens de la chasse; cela fait la troisième fois que j'y vais. Je n'ai d'ailleurs pas eu de chance; mon oncle n'a rien tué les jours où j'ai été avec lui. Aujourd'hui il a touché une perdrix mais elle est tombée dans un buisson et n'ayant

الصفحتان 1 و4 من رسالة أرسلتها سيمون إلى زازا أيّام الطّفولة. كتبتها وهي في سنّ الثانية عشرةَ، بحبرٍ أرجوانيّ، ووقّعتها باسم «التي لا تنفصل عنك»: «عزيزتي زازا، أعتقد اعتقادًا راسخًا في أنّ كسلي لا يضاهيه إلّا كسلُك. مرّت خمسة عشر يومًا منذ وصلتني رسالتُك الطّويلة، ولم أقرّر بعدُ كتابة جوابٍ لك. أنا هنا غارقةٌ في الاستمتاع لدرجة أنّني لم أجد الوقت للكتابة. للتوّ عدت من القنص؛ وهي المرّة الثالثة التي أذهب فيها إلى القنص. والحقّ أنّني لم أكن محظوظةً، فعمّي لم يصد أيّ شيء في الأيّام التي رافقتُه فيها. أصاب اليوم حجلًا لكنّ الطّائرَ سقط في دغل ولم [...]

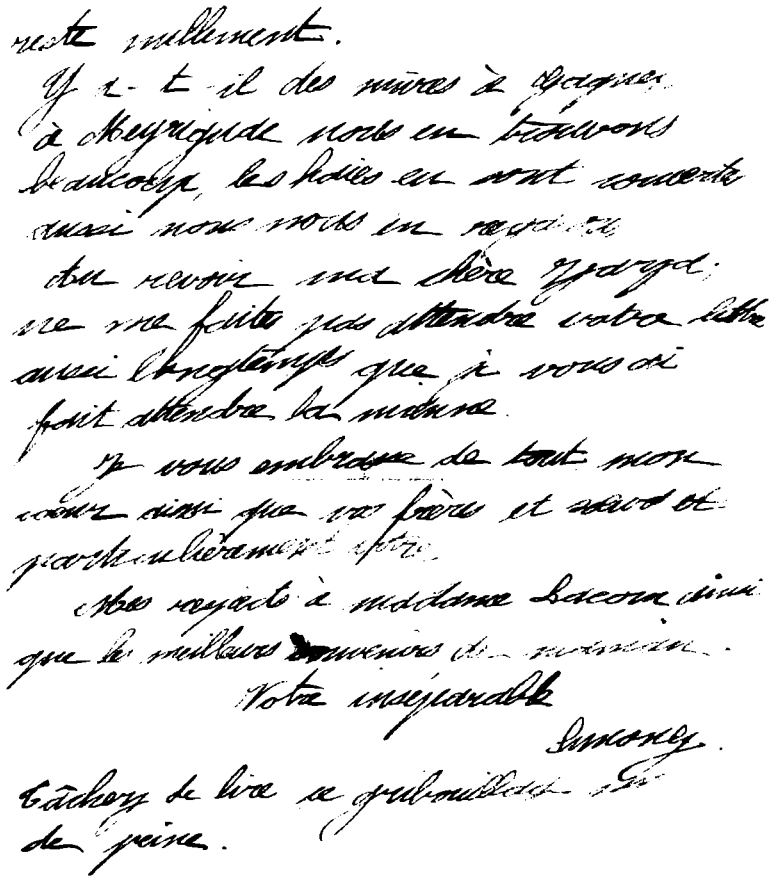

يبقَ شيء. هل نضجت ثمارُ العلّيق في غانيُبان؟ في ميرينياك يوجد الكثير منه، شُجيراتُه تُغطّي التحوّطات، وإنّنا لنستمتعُ بأكله. وداعًا عزيزتي زازا، لا تبطئي عنّي رسالتكِ كما أبطأتُ عنكِ رسالتي. أقبّلك من أعماق قلبي، أنتِ وإخوتك وأخواتك. أبعث إلى مدام لاكوان بتحيّاتي، وبأخلص الودّ من ماما ـ سيمون، التي لا تنفصل عنكِ. احرصي على أن تقرئي هذه الخربشة دون كبير حزن».

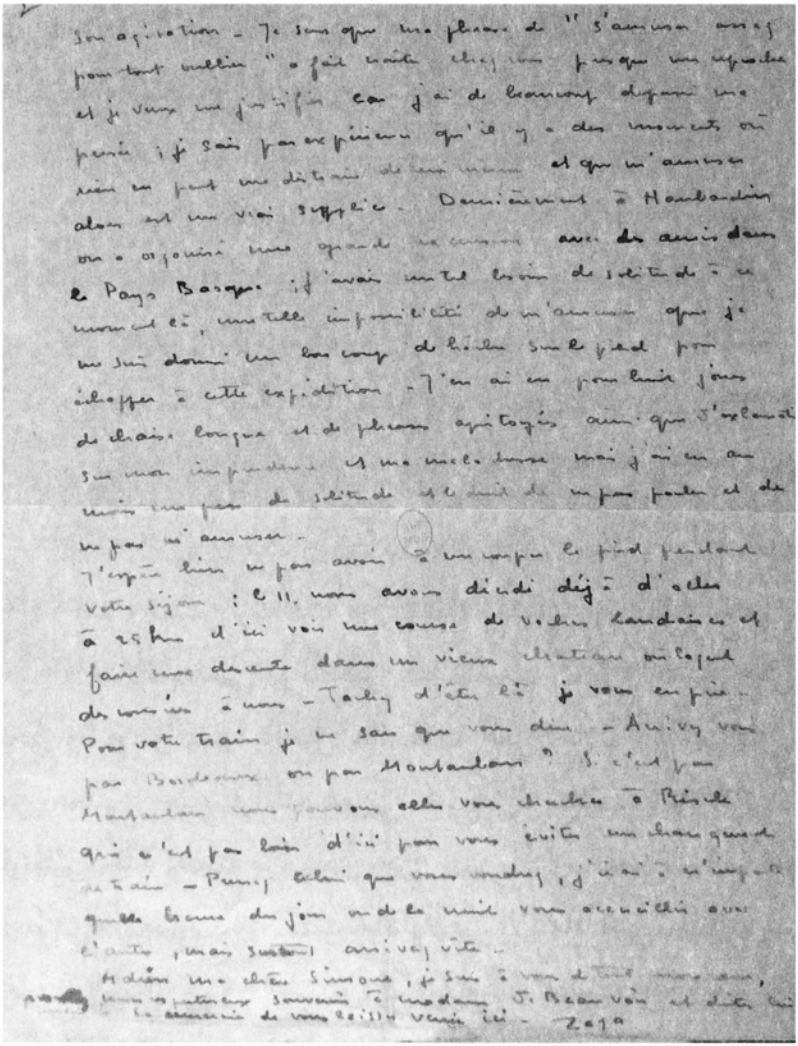

رسالة من زازا إلى سيمون، بتاريخ 3 سبتمبر 1927، حيث تذكر ضربةَ الفأس التي وجَّهَتها إلى نفسها هروبًا من ضغط غانيُبان

غانيُبان 3 سبتمبر 1927

عزيزتي سيمون،

لقد وصلتني رسالتك في لحظةٍ، مكَّنتني فيها بضعُ ساعات من الاختلاء بنفسي، والتَّفكير بصدقٍ، من أن أرى نفسي على نحوٍ أوضحَ، وأفهمَها بأفضل ممَّا كنت أفعلُ خلال القسم الأوَّل من عطلتي. حين قرأتُك غمرني الفرحُ، إذ شعرتُ بأنَّنا لا نزال قريبتيْن جدًّا بعضنا من بعض، في حين أنَّ رسالتك السَّابقة قد أعطتني الانطباع بأنَّكِ كنتِ ماضيةً في الابتعاد عنِّي، وبأنَّكِ قد غيَّرتِ المسار فجأة. اعذريني لأنَّني أسأتُ فهمك بالجُملة. إنَّما مردُّ خطأي إلى أنَّكِ، في رسالتك السَّابقة، قد شدَّدتِ كثيرًا على ذاك البحث عن الحقيقة، أقصدُ المسعى الذي اتَّخذتِه مؤخَّرًا. غير أنَّني حسبتُ أنَّ مسعاكِ ذاك الذي ليس إلَّا هدفًا، ومعنًى لوجودك، هو بمثابة تخلٍّ عن كلّ تجربةٍ، وتخلٍّ تامّ عن جزءٍ جميلٍ من إنسانيَّتنا. والآن أرى أنَّكِ بعيدةٌ جدًّا عن التَّفكير في بترٍ من

هذا القبيل، وأنَّكِ لن تتخلّي عن أيِّ شيء من نفسك؛ هو ذا، لقد صرتِ الآن على يقين، وهذه هي الطّاقة الحقيقيَّة، وأعتقد أنَّنا يجب أن نسعى جاهدين في سبيل الوصول إلى نقطةٍ معيَّنة من الكمال الداخليّ حيث تختفي كلّ تناقضاتنا، وحيث تبلغ الأنا مدى تحقُّقها. ولهذا السَّبب أحببتُ تعبيركِ: «أن نُنقذ نفسَنا في كليّتها»، وهو أجمل تصوُّر بشريّ للوجود، وليس يبتعد كثيرًا عن «تحقيق المرء خلاصَه» الذي يدعو إليه الدِّين المسيحيّ، حين نستوعبه في معناه الأشمل.

[...] حتى وإن لم تُفصحي إليَّ بالأمر، فإنَّني أعرفُ أنَّك في هذه اللَّحظة تعيشين سلامًا عظيمًا، أستطيع أن أعرف ذلك فقط من الهدوء الذي غمرتني به رسالتكِ. لا أجمل في هذا العالم من الشعور بأنَّ ثمَّةَ شخصًا ما يمكن أن يفهمَك تمامَ الفهم، ويمكنُكَ أن تعتمد على صداقته كلَّ اعتماد.

تعالي ما إن تسنح لك الفرصة. تعالي مثلًا يوم العاشر، فهو تاريخٌ مناسبٌ لنا، لا بل إنَّ كلّ تاريخ يناسبنا. سوف تصادفين هنا آل نوفيل الذين يقضون عندنا فترة ما بين 8 إلى 15 من الشّهر. لذا فإنَّك ستعيشين في البداية أيّامًا هائجةً صاخبةً، لكنَّني أرجو أن تمدِّدي عطلتك بحيث تبقين مدَّةً طويلةً بعد رحيلهم، فيكون بمقدورك أن تستمتعي بهدوء غانيُبان كما استمتعتِ بصخبه. أشعر أنَّ عبارة «ألهو لأنسى كلّ شيء» التي كتبتُها لكِ، قد خلَّفت في نفسك ما يشبه اللَّوم، وأريد أن أشرح لكِ أسبابي لأنَّ

التَّعبير تجاوز كلّ فكري؛ أنا أعلم عن تجربةٍ بأنَّ هناك أوقاتًا لا يستطيع فيها شيءٌ أن يسلّيني عن نفسي، وتلك أوقاتٌ يكون فيها اللَّهوُ بمثابة عذابٍ فعليّ. مؤخَّرًا، في هوباردان، نظَّمنا خرجةً كبيرة مع أصدقاء في بلاد الباسك. وفي تلك اللَّحظة شعرتُ بحاجةٍ حارقة إلى العزلة، كان يستحيل عليَّ الشّعور بالمتعة، حتَّى أنَّني شَججت قدمي بفأسٍ هروبًا من تلك الرِّحلة الاستكشافيَّة. فَرض عليَّ الأمرُ ثمانيةَ أيَّامٍ من الرُّقود على الكرسيّ المديد، وسماع عبارات الأسف والتعجُّب من تهوّري وقلَّة سدادي، لكنَّني على الأقل، حظيتُ بشيءٍ من الوحدة وحُزتُ الحقّ في ألَّا أتحدَّث أو ألهو.

اَمل ألَّا أضطرّ، حين تأتين، إلى أن أضرب قدمي مرَّةً أخرى. لقد رتَّبنا لأن نذهب، يوم الحادي عشر، إلى سباق أبقارٍ لانديَّة يُقامُ على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من هنا، ثمَّ ننزل قلعةً قديمة يقيم فيها بعضٌ من أبناء عمومتنا. رجاء احرصي على القدوم. أمَّا بالنِّسبة إلى القطار، فلا أعرف ماذا أقول لكِ. هل ستأتين عبر بوردو أو مونتوبان؟ إن كنت ستأتين عبر قطار مونتوبان، فيمكننا أن نستقبلك في محطَّة ريسكل، وهي ليست بعيدة عن هنا، كي نجنِّبَكِ تغيير القطار. استقلّي أيّ قطارٍ تشائين، سأستقبلك في أيِّ وقتٍ من النَّهار أو اللَّيل، وأُقلّك في السيَّارة.

أودُّ أن أعرف كيف تقضين إجازتك. إن كنتِ تستطيعين، أكتبي إليَّ ما إن تصلكِ رسالتي هذه، في مرسيليا، وتستلمينها

في مقرّ البريد، هكذا يكون بوسعي أن أطّلع على أخبارك. كثيرًا ما أكون معك، وإن باعدَت بيننا المسافة. لا بدَّ من أنَّكِ تعرفين ذلك، ولكن يسرُّني أن أرى قلمي يدوِّنُ حقيقةً لا جدال فيها.

قبلاتي الحارَّة لكِ، وتحيَّة صداقةٍ إلى بوبيت، وتحيَّةَ تقدير إلى والديْكِ.

زازا

مكتبة
t.me/t_pdf

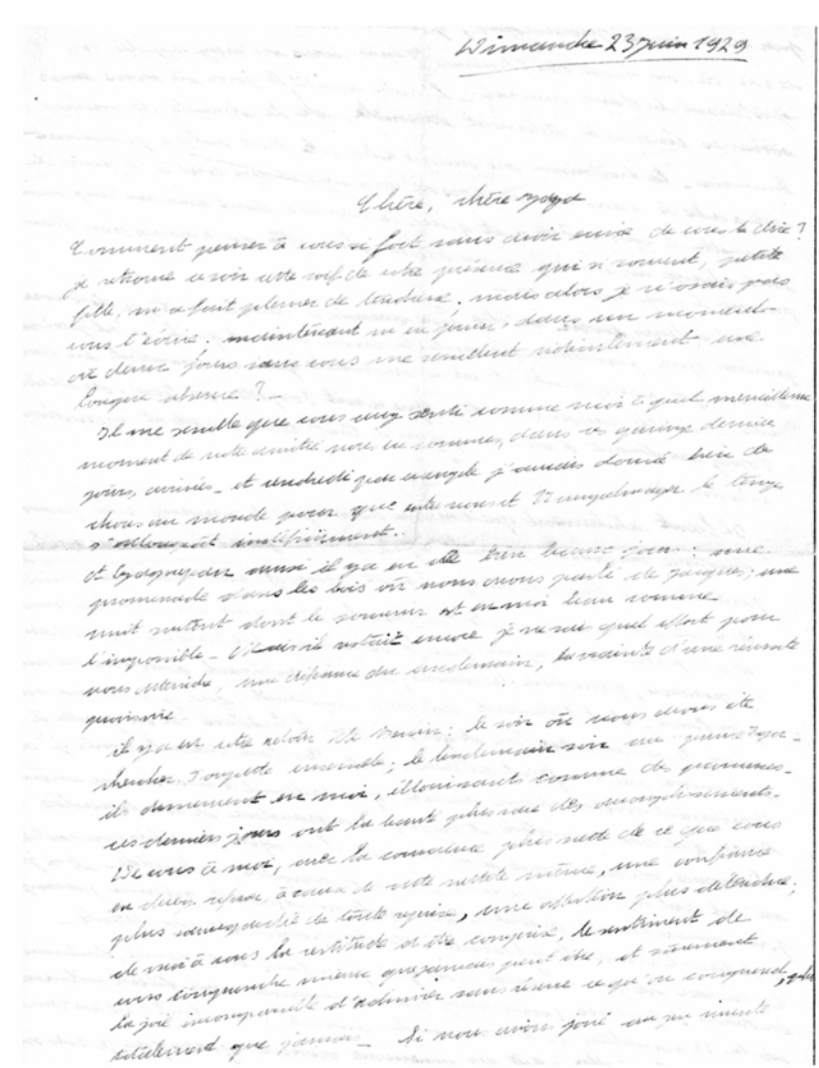

الصّفحة الأولى من رسالة كتبتها سيمون إلى زازا، وقد حُرّرت الرّسالةُ على ورقِ حِدادٍ بسبب الوفاة الحديثة لجدّ سيمون (توفي يوم 12 مايو 1929 بميرينياك)

الصفحة 1:

(باريس) الأحد 23 يونيو 1929

عزيزتي زازا،

كيف لي أن أفكّر فيكِ بهذه القوَّة، ولا تنتابني الرَّغبة في أن أخبركِ بذلك؟ اللَّيلة، أنا ضمآنةٌ إلى حضورك الذي كثيرًا ما كان يبكيني أيَّامَ الطّفولة. ولكنَّني أيَّامها، لم أكن أجرؤ على كتابة ذلك إليكِ. أمَّا الآن، فأشعر بأنَّ حرماني منكِ ليوميْن هو غياب طويل!

يبدو لي أنَّك بتّ مثلي تشعرين بمدى الرَّوعة التي بلغتها صداقتُنا خلال الأيَّام الخمسة عشرة الماضية؛ ويوم الجمعة على سبيل المثال، كنت مستعدَّةً لأن أعطي العالمَ الكثير من الأشياء، مقابل أن تمتدّ بنا اللَّحظةُ رفقة رومبلماير.

في غانيبان أيضًا كانت لنا أيَّامٌ جميلة: نزهة في الغابة تحدَّثنا خلالها عن جاك؛ ليلة مميَّزةٌ ما تزال ذكراها في نفسي جميلةً كما المستحيل. ولكنْ ما يزال أمامنا جهدٌ لنبلغَ أنفُسنا، ثمَّة ريبةٌ من المستقبل، وخوفٌ من أن يكون النَّجاح مؤقَّتًا.

ولا أنسى يوم رجوعك من برلين: ذاك المساء الذي ذهبنا نستقبل فيه معًا بوبيت؛ ثمَّ المساء الذي بعدَه، حين ذهبنا نشاهد أوبرا الأمير إيغور ـ إنَّها لحظات ما تزال تبرقُ فيَّ مثل وُعودٍ.

لقد كانت الأيَّام الأخيرة جميلةً جمالًا أعزَّ من جمالِ الوعود المتحقَّقة. جميلةً بالنِّسبة إليكِ، بفضل وعيكِ الواضح بما يجب أن ترفضيه، بسبب وضوحه تحديدًا، وبفضل الثقة الحصينة، والمودة المريحة؛ وبالنِّسبة إليَّ أنا، بفضل يقيني في أنَّني أُفهَمُ، وشعوري بأنَّني أفهمُك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى؛ وبالتَّأكيد شعور الفرح الذي يغمرني وأنا أتأمَّل في إعجابٍ ما بتُّ أفهمه أكثر من أيّ وقتٍ مضى. إن كنَّا قد لعبنا لعبتنا المخترعة... [الصَّفحة 2 لا تظهر]

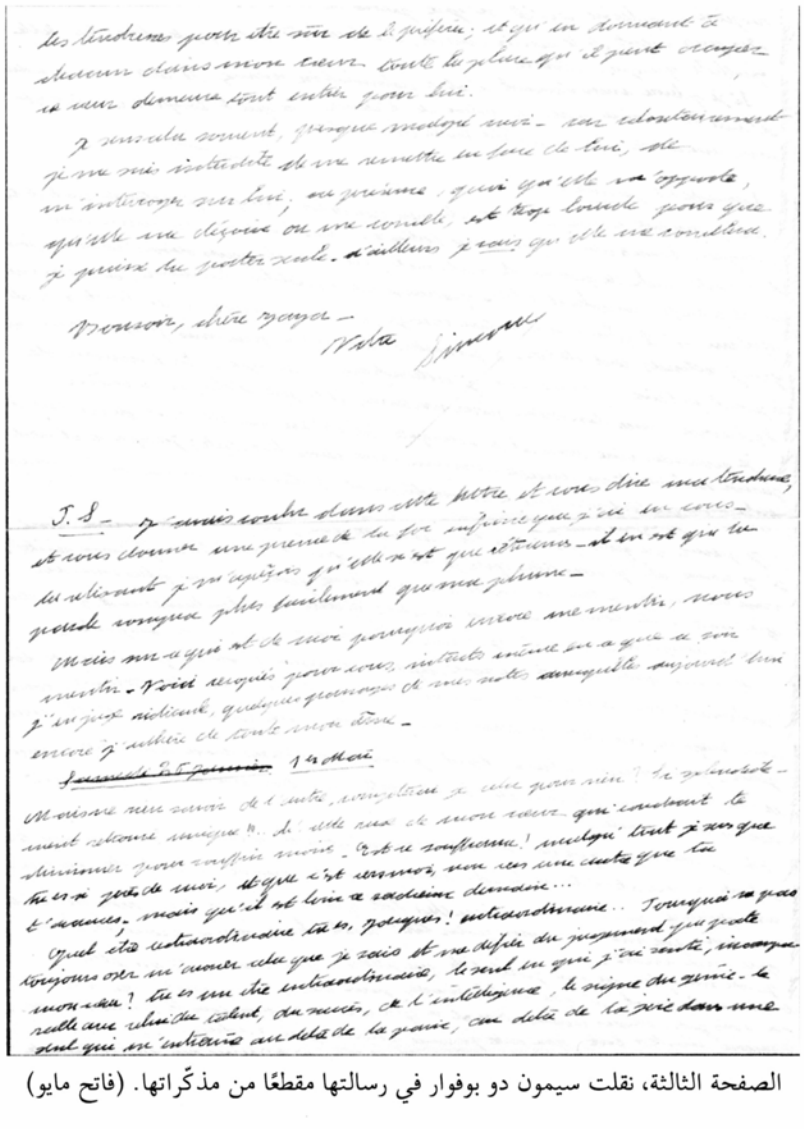

الصفحة الثالثة، نقلت سيمون دو بوفوار في رسالتها مقطعًا من مذكّراتها. (فاتح مايو)

الصفحة 3: ... الحنان لأكون على يقين من تفضيله؛ ومع الحرص على أن أُنزلَ كلّ شخصٍ الموضعَ الذي يستحقُّه في قلبي، فإنَّ هذا القلبَ يظلّ برمَّته ملكًا له.

ذلك ما أشعر به في كثير من الأحيان، وتقريبًا رغم أنفي، لأنَّني أمتنع طواعيةً عن مجابهته، أو مساءلته؛ إنَّ حضوره، بغضّ النَّظر عمَّا يمنحني إيَّاه، وسواءً كان مجلبةً للخيبة أو للرّضا، فإنَّه يظلّ حملًا أثقل من أن أحمله وحدي... علمًا بأنَّني متيقِّنةٌ من أنَّه سيسعدني.

طاب مساؤكِ، يا عزيزتي زازا

عزيزتك سيمون

ملحوظة: أردت في هذه الرِّسالة أن أعبِّر لكِ عن عطفي، وأن أعطيكِ دليلًا على الإيمان اللَّامحدود الذي أكنُّه لكِ. لكنْ لمَّا أعدتُ قراءتها، لم أرَ فيها غير التردُّد. أرى أنَّ كلامي أبلغُ من ريشتي.

لكنْ لِمَ عليَّ أن أواصل الكذب، أن أكذب على نفسي، وأكذب عليك. إليكِ مقاطع نسخْتُها من دفتر تدويني، بما فيها تلك السَّخيفة التي كتبتها اللَّيلة؛ تدويناتي التي ما زلت إلى اليوم متمسِّكةً بها بكامل كياني.

~~السّبت 26 يناير، فاتح ماي~~

لكنْ، ألَّا أعرفَ عن الآخر شيئًا، أهو أمرٌ هيِّنٌ؟ أوّاه! بعد أن عثرت عليك، وألفيتك بهذه الرَّوعة وهذا التفرُّد! صار قلبي يلجأ إلى حيلة: أن ينتقص من حجمك ليعانيَ أقلَّ. أهي معاناة؟ كلّ الذي أعرفه هو أنَّك قريبٌ جدًّا منِّي، وأنَّك نحوي تسيرُ وليس نحو أخرى.. لكن ما أبعد المقصد المنير...

أيُّ كائنٍ رائع أنت يا جاك! رائع...

لماذا لا أجرؤ دائمًا على الاعتراف بما أدركه، وعلى مواجهة الحكم الذي يحمله قلبي؟ أنت إنسانٌ خارق، الوحيد الذي شعرت بأنَّني لا أضاهيه موهبةً، ونجاحًا، وذكاءً، وعبقريَّة، الوحيد الذي يحملني أبعد من السَّكينة وأبعد من الفرح...

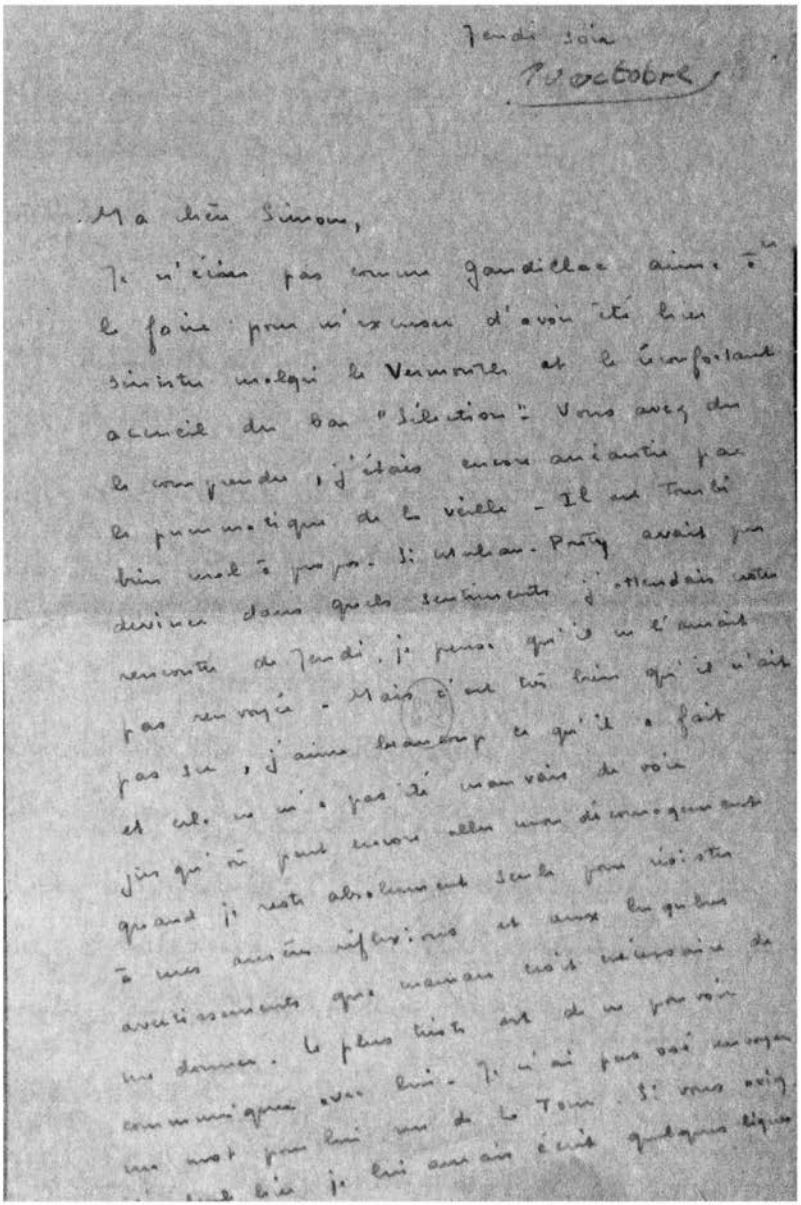

رسالة من زازا إلى سيمون، وفيها تبوح لها بحبّها لميرلوبونتي

مساء الخميس، 10 أكتوبر 1929

عزيزتي سيمون،

لا أكتب، على شاكلة ما يفعله كانديك، لكي أعتذر عن كآبتي أمس على الرَّغم من شراب الفيرموث والاستقبال الحميميّ الذي حظيتُ به في بار «سِلِكسيون Sélection»[1]. لا بدَّ من أنَّكِ قد أدركتِ أنَّني كنت ما أزال مدمَّرةً من الالتهاب الرئويّ الذي كنت أعاني منه في اليوم السَّابق. الحقّ أنَّه أصابني في أسوأ وقتٍ يمكن أن يصيبني فيه. أحسبُ أنَّ ب. [ميرلو بونتي] لو علِمَ أيّ مشاعر تلفُّني وأنا أرقب موعدي معه ليوم الخميس، لما أجّلَه. ولكنْ من الجيِّد جدًّا أنَّه لم يكن يعرف؛ حسنًا فعل، والحقّ أنّي لا أرى سوءًا في أن أقف على المدى الذي قد يبلغه إحباطي، حين أظلّ

(1) «بار سلكسيون (النّخبة)» يشير إلى الغرفة التي اكترتها سيمون دو بوفوار، بدءًا من شهر سبتمبر 1929، من عند جدَّتها، وكانت تلك أوّل مسكنٍ مستقلّ خاصّ بها. (حاشية أصليّة في الكتاب).

وحيدةً أقاوم أفكاري المريرة، والتَّحذيرات المفجعة التي ترى أمّي أنَّ من الضّروري أن توجّهها إليَّ. أكثر ما يحزنني هو عدم إمكان التواصل معه. لم أجرؤ على أن أبعث إليه برسالةٍ في عنوانه بشارع لا تور. لو أنَّكِ كنتِ أمس بمفردك لكتبتُ إليه رسالةً، ثمَّ لطلبت منكِ أن تكتبي بخطّكِ غير المقروء عنوانَه على ظهر الظرف. أرجو أن تتلطَّفي فترسلي إليه، تعلمينَه بما يعلمه أصلًا، قولي له إنَّني قريبةٌ منه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وذكّريه على الخصوص بأنَّه يستطيع أن يرسل إليَّ، على عنوان بيتنا، ما يشاء من رسائل. ويُستحسن ألَّا يحجم عن ذلك، لأنَّني إن لم يكن بمقدوري أن أراه قريبًا، فسأحتاج إلى أن تصلني منه رسالةٌ. خاصَّة وأنَّه لا يدري أنَّني، في هذه الأثناء، فرحة. ذاك أنَّني حتَّى إن حدَّثتُه عنَّا، فإنَّني أتحدَّث بجدِّيَّةٍ. وعلى افتراض أنَّ وجوده يريحني ويعيد إليَّ الاطمئنان السَّعيد الذي كنت أشعر به يوم الثلاثاء، حين كنَّا نتحدَّث أنا وأنتِ في فِناء ثانوية فينيلون، فستبقى ثمَّة دائمًا أشياءُ محزنةٌ في هذا العالم لا نستطيع أن نتحدَّث عنها حين نشعر بالكآبة. ليس لأحبَّائي أن يقلقوا، فأنا لا أهرب منهم. بل إنَّني أشعر، في هذه الأثناء، أنَّني متعلِّقة بالدّنيا، وبحياتي أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وأنا حريصةٌ عليكِ بكلِّ قلبي يا صديقتي سيمون، أيَّتها الآنسة المميَّزة والمترفّعة.

زازا

* * *

باريس، الاثنين 4 نوفمبر 1929

عزيزتي سيمون

لقد التقيت ب. [ميرلو - بونتي] يوم السبت، أخوه يسافر اليوم إلى الطّوغو؛ سيكون مشغولًا حتى نهاية الأسبوع، في الدّروس، أو سيظلّ لبعض الوقت مع أمّه التي يشقّ عليها فراقُ أخيه. سنكون سعيدتيْن جدًّا إن كان بمقدورنا أن نلتقي يوم السّبت في بار سلكسيون، ونراكِ، أيَّتها الهاربة أبدًا، وأنتِ ترتدين فستانك الرماديّ الحلو. أعلم أنَّ الرّفاق الأعزّاء يخرجون يوم السبت، لماذا لا نجتمع إذن جميعًا؟ أم تُراهم ينفرون منّا؟ هل تخشين أن نلتهمَ بعضنا بعضًا إن التقينا جميعًا؟ أمّا أنا فأتوق إلى لقاء سارتر في أقرب فرصةٍ، لقد سرّتني كثيرًا رسالتُه التي قرأتِها عليَّ، وكذلك قصيدتُه، وإن كانت خرقاء إلّا أنّها حثّتني على التّفكير كثيرًا. وحتّى يوم السبت، لن أستطيع، لأسبابٍ عائليَّة يطول شرحها، أن ألتقي بك على انفراد، فلننتظر قليلًا.

أفكّر فيكِ دائمًا، وأحبّكِ من كلّ قلبي.

زازا

مكتبة
t.me/t_pdf

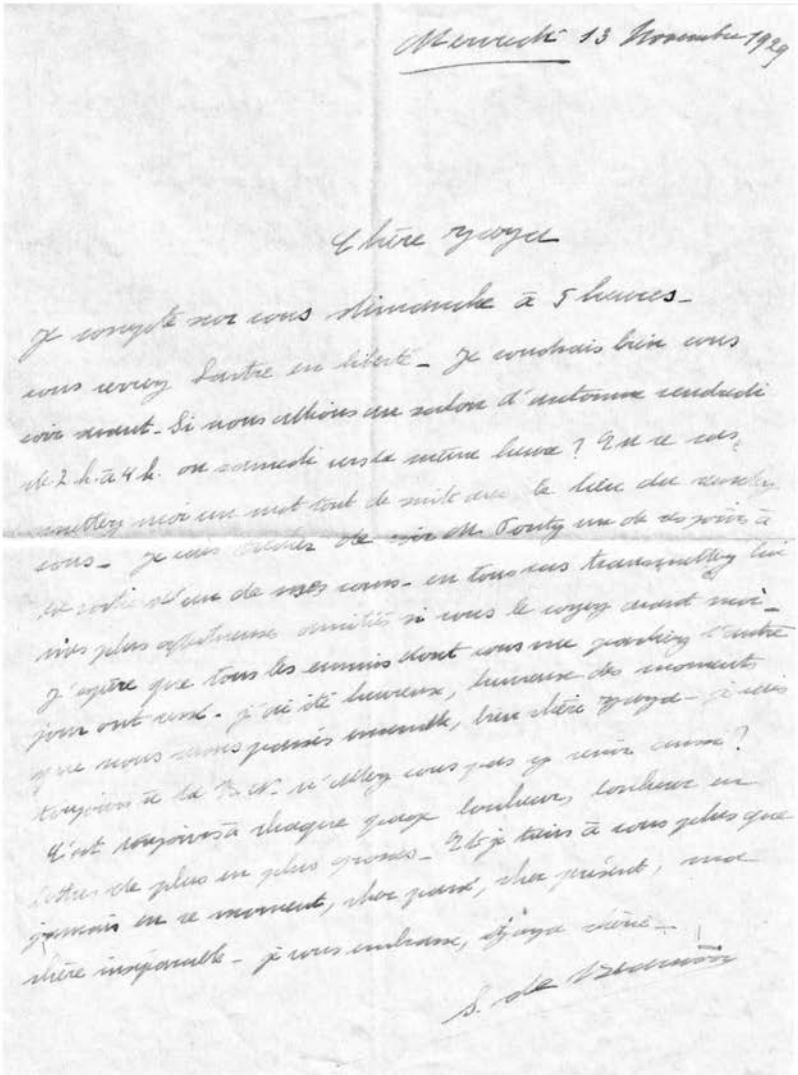

آخر رسائل سيمون دو بوفوار إلى زازا، بتاريخ 13 نوفمبر 1929، وكانت زازا آنئذٍ مريضةً جدًّا، حتّى إنّها لا شكّ لم تستطع قراءتها. وفيها نقرأ آخر استعمالٍ لعبارة «التي لا تنفصل عنّي». توفيت زازا، يوم 25 نوفمبر

الثلاثاء (13 نوفمبر 1929)

عزيزتي زازا

أعتمد على حضورك يوم الأحد في الخامسة صباحًا. سترين سارتر حرًّا طليقاً[1]. لشدّ ما أودّ أن ألتقيكِ قبل ذلك. ما رأيكِ في أن نذهب إلى صالون الخريف[2] يوم الجمعة من الساعة الثانية إلى الرّابعة، أو يوم السّبت في الموعد نفسه؟ في هذه الحال، اتركي لي فورًا رسالةً تعلميننني فيها بمكان الموعد. سأحاول أن ألتقي ميرلوبونتي في يومٍ ما، عند نهاية درسٍ من دروسه. على أيِّ حال، بلِّغيه أحرّ تحيّاتي إن التقيتِه قبلي.

أرجو أن تكون كلّ المشاكل التي حدَّثتني عنها في المرَّة الماضية قد اختفت. لقد سعدتُ، سعدت كثيرًا بالوقت الذي قضيناه معًا يا عزيزتي زازا. أنا دائمة التردُّد على المكتبة الوطنيَّة، ألن تأتي إلى هناك؟

---

(1) إشارة إلى الخدمة العسكريَّة التي كان سارتر قد التحق بها حديثًا. (حاشية أصليَّة في الكتاب)

(2) جمعيَّة غير ربحيَّة كانت تضمّ الفنَّانين والكتَّاب.

قراءتكِ دائمًا ما تجلب لي السّعادة، يا لها من سعادة أن تصلني منك رسائل أطول، فأطول! وقد صرت متعلّقةً بكِ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، أنتِ يا ماضيَّ العزيز، وحاضريَ العزيزُ، يا عزيزتي التي لا تنفصل عنّي. قبلاتي يا عزيزتي زازا.

س. دو بوفوار

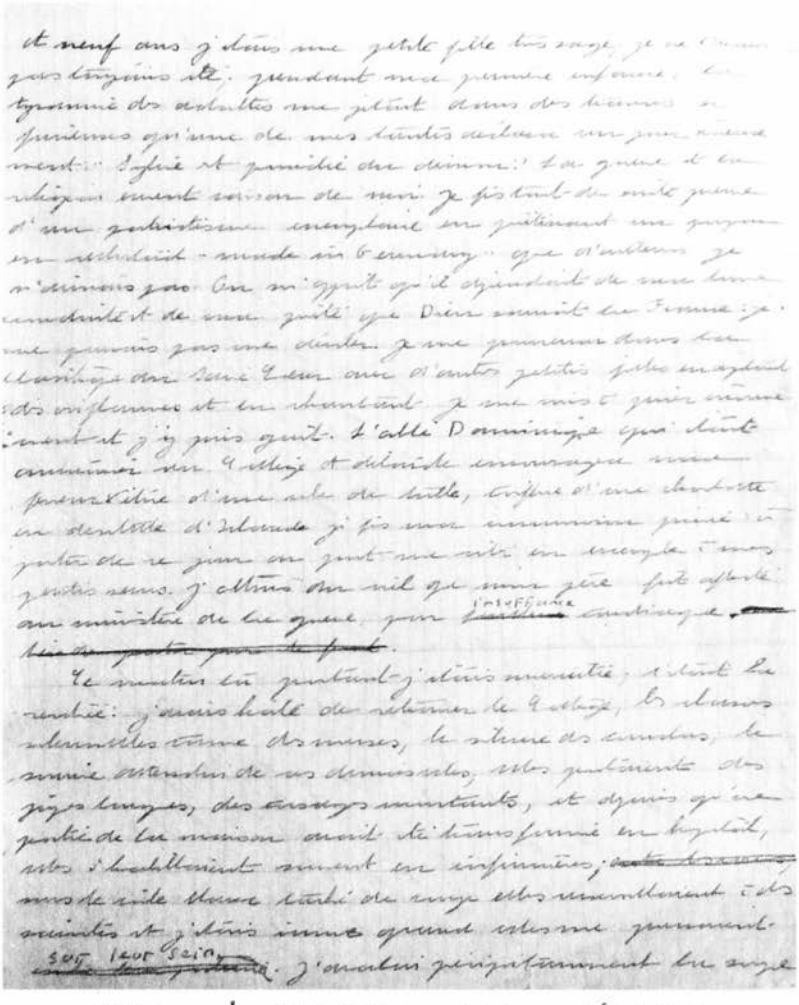

الصفحة الأولى من مخطوط «صبيّتان لا تفترقان»، وكُتب سنة 1954

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة | 896

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

telegram @t_pdf

عبر تجربة صداقةٍ فريدة بين صبيّتين، ترسم هذه الرواية لوحةً غنيةً بتجارب الاكتشاف المختلفة: الجسد والثقافة والوجود. سيرة مزدوجة هي في آن حقل اختبارٍ وجوديّ لبعض أفكار دو بوفوار، وقطعة أخرى تضيء شيئًا من حياتها وسيرتها.

إنَّ سيمون دو بوفوار، في هذا النصّ الذي لم يُنشر من قبل، مؤثّرة، وصادقة، وأصيلة، وفيّاضة... صدقُ عبارتها يتجاوز الطابع التخييليّ للسرد، ليقدّم إلينا رسالةً صريحة: قُل لمن تُحبُّه إنّك تحبُّه، قبل فوات الأوان!

ISBN: 978-9953-89-724-0

9 789953 897240

دار الآداب